الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاسكندرية

محمّد محمّد أبو خوات

دروس من غزوات الرسول

دار المعارف

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

دروس من غزوات الرسول

تأليف

محمد محمد أبو خوات

وكيل معهد الاسكندرية الأزهرى

وعضو مجلس إدارة الهيئة المحلية لرعاية الفنون

والآداب والعلوم الاجتماعية بالاسكندرية

الجزء الأول

دار المعارف

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة هذا الكتاب

فى شهر يوليو ١٩٦٨ انبثقت من مجلس الثقافة والهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية «اللجنة العليا للتعبئة الروحية» ... برياسة السيد نائب مدير الأمن بالاسكندرية وعضوية ممثلين لكل من لهم صلة واهتمام بالثقافة الدينية والدعوة إلى الله فى المحافظة ، وكنت بكثير من هذه الصفات أحد أعضاء هذه اللجنة : ورأت اللجنة العليا هذه أن تختار خمسة مساجد لتقام فيها طيلة شهر أغسطس « ملتقى رواد الاسكندرية فى الصيف » ندوات دينية ثقافية بشتى فنون القول والبيان، وأن يقوم أربعة من أعضاء الهيئة المحلية بتأليف أربعة كتب بهذه المناسبة ، ووقع إختيار اللجنة على الأربعة وكنت أحدهم؛ واختير لى لون من الكتابة واقترح علىَّ العنوان وقبلته ... «دروس من غزوات الرسول» .

ورغم أن خبرتى بالطباعة والتأليف سماعية بدون مباشرة ، إلا أن الثلاثة الآخرين شجعونى على الدخول فى هذا الخضم المرتبط بأكثر من جهة وأكثر من شخص وبأعظم الجهود... وبينما أنا غارق فى تحديد ماقدم من معلوماتى الشخصية، وفى رسم المنهج الذى سأسير عليه فى الكتابة فى هذا الموضوع ،مستهدفا أن يجىء الكتاب رغم قدم موضوعه جديداً فى أسلوب تأليفه بحيث يربط بين أحداث الغزوات وبين ما يحيط بنا فى المجتمع المعاصر ، وبحيث يتصدى للرد على كل التهم الباطلة التى تلصق بالاسلام ،سواء فى عموميات الكتاب أم عند كل حدث بعينه، أقول : بينما أنا مهتم بذلك كله غارق فى التفكير فيه إذ الأسئلة تترى سؤالا بعد سؤال عن الفراغ من الكتاب .. وذات يوم أخبرت فى لهجة حاسمة - بأن أمامى يومين اثنين لتسليم أصول الكتاب إذا كنت أريد أن يصدر بهذه المناسبة فى هذه القافلة من الكتب التى أوصت اللجنة بتأليفها.

وكنت ليلتئذ قد فرغت مما فى غزوة خيبر من دروس ، ولم أدخل بعد فى درجات فتح مكة فآثرت أن أنتهى عند هذا الحد فيما أطلقت عليه - الجزء الأول - ليكون بدء الجزء الثانى

أستخلاص الدروس التى نفيدها مما حدث فى فتح مكة ، وليكون ذلك استفتاحا بالفتح تفاؤلا بذلك لعله يوافق فتح العرب والمسلمين لبيت المقدس بلد المسجد الأقصى ، ولعل ما يحدث هنا إن شاء الله يشا كل ما حدث هناك بإرادة الله ...

وإنى إذ أقدم هذا الجزء من الكتاب: «دروس من غزوات الرسول» . إلى الراغبين فى الاطلاع على لون من الثقافة الاسلامية بروح العصر وأسلوبه ؛ أرجو أن أكون قد وفقت فى تحقيق ما أرادت «اللجنة العليا للتعبئة الروحية» من اضافة شىء جديد كانت المكتبة الاسلامية العربية فى حاجة اليه ...

فهرس الموضوعات

تمهيد	١
الإسلام دين عزة وسلام	٣
الإذن بالقتال	١١
مشروعية القتال فى سبيل الوطن	١٥
غزوة بدر الكبرى	١٧
مقاييس النصر والهزيمة	٢٢
درس الديمقراطية على أحدث الطرق	٢٤
غزوة أحد	٣١
تأصل عداوه اليهود للمسلمين	٣١
أثر الشائعات فى المجتمع	٤٤
إيمان القائد أعظم وسائل النصر	٤٩
حب وكرامة	٦٤
غدر اليهود	٦٧
لون من العدالة الاجتماعية فى غزوة بنى النضير	٧٢
غزوة ذات الرقاع والصلاة	٧٧
غزوة بنى المصطلق	٨٢

غزوة الأحزاب (الخندق) ٨٥

الوسائل الإنسانية والرعاية الإلهية ٩٠

أحداث فى الغزوة ٩٣

الحديبيــة ٩٩

دروس فى الحادث والصلح معا ١٠٢

أبو بصير ومن أنضموا إليه ١١٠

موقفان للنبى وزوجه أم سلمــة ١١٢

كلمة إلى العرب ١١٩

إسلام النجاشى ١٢٣

غزوة خيبر ١٢٦

أحداث أربعة ودروس منها ١٢٩

معجزة وإسلام يهودية ١٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

اقترح على بعض من أثق بهم ويثقون بى ، أن أكتب كتاباً أكشف فيه ما يمكن أن تفيده الأمة الإسلامية والعربية كلها ، من الدروس والعبر التى تستخلص من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يستطيع كل فرد منها أن يجعلها موضع اهتمامه لينتفع بها فى موقعه قائداً أو جنديا رئيسا أو مرءوسا أو واحداً من الجماهير العريضة فى المجتمع .

ولقد لقى هذا الاقتراح هوى فى نفسى . أولا: لأنه يتصل بجهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهاد صحابته، وفى الكتابة فى هذا المعنى خير كثير، وثانيا: لأن أمتنا العربية تعيش الآن فى مرحلة ما بعد نكسة ٥ يونيو ١٩٦٧ ينتابها القلق على المصير ، ويؤرقها تذكر الصدمة التى لم تكن متوقعة قـــط ، وتغشاها ضروب الحرب النفسية وما يستر أوارها من ألوان الشائعات والأكاذيب والضغوط السياسية والاقتصادية وغيرها مما يحسن العدو

استغلاله أبشع استغلال ... فهى بحاجة إلى استعراض ماضيها العظيم تأخذ منه ما يضىء لها طريق المستقبل شأن كل أمة ضاربة فى أعماق التاريخ .

ومن هنا تلاقت رغبات الإخوة مع رغبتى ، فكانت هذه الكلمات إسهاما متواضعا وجهاداً - أدعو الله أن يكون مقبولا عنده - فى معركة المصير التى تخوضها أمتنا العربية فى هذه الأيام وزاداً يستطيع كل مسلم أن يتزود به حصانة من الفتن التى قد تمس يقين الإيمان ، ونوراً يكشف الظلمات ويمحو الشبهات من حول الحقيقة الإسلامية الحنيفية السمحة الناصعة البياض.

واقترح العنوان : « دروس من غزوات الرسول » وقبلته ، ولا يعنينى أن أكون قد سبقت به أو لم أسبق ، اعتقاداً منى أن قيمة الكتاب ليست فى عنوانه ، وإنما قيمة العنوان فى صدق الدلالة على موضوع الكتاب : ولكل كاتب بعد ذلك معلوماته وفكره وأسلوبه ، لا يلتقى فى شىء منها مع غيره التقاء كاملا أبداً ، فإن الاختلاف من الحقائق الإنسانية « ولذلك خلقهم » .

وإنه ليجدر بى أن أعرض بين يدى الموضوع نفسه لأمور أعتقد أنه لابد من عرضها لتكون مناقشتها مدخلا أمينا للموضوع وحسما لبعض ما يعتمل فى نفس القارىء من تساؤلات قد تشغل ـ بحق ـ جانبا من تفكيره أثناء معالجته لمختلف قضاياه ... فلقد يتساءل القارىء عن دواعى حمل السلاح عند قوم ينادون بالسلام ، وقد تتراقص أمام عينيه وتتذبذب فى أذنيه دعاوى بعض الكاتبين أن الإسلام كعقيدة قام بالقوه والعنف أو كما يعبرون « بالسيف » ... وقد يختلف الناس حول معنى سبيل الله التى وجب الجهاد فيها على القادرين بأموالهم وأنفسهم وهل يدخل الوطن فى هذه السبيل إلى غير ذلك مما قد تسمح جوانب البحث بالتعرض له ، ولعل من الخير أن أجمل هذا كله تحت عنوان واحد يعتبر نتيجة مقدمة لكل المناقشات التى تنضوى تحته هو :ـ

الإسلام دين عزة وسلام :ـ

الدين الإسلامى دين الحياة كلها ، وهو دين عملى يأخذ الحياة من واقعها ، ويخاطب الناس على ما فطروا عليه . والحياة ألوان مختلفة فيها الخير وفيها الشر ، والناس فى الحياة فيهم البر الخير،

وفيهم الفاجر الشرير .

والرسالة الإسلاميه رسالة الحق والعدل ، ومن مهامها الأساسية نلمس الوسائل لتقويم الانحرافات التى تقع فى دنيا الناس . ليعتدل ميزان الحياة بتحقيق أكبر قدر ممكن من معانى الحق والخير والجمال، حتى يجد الناس فيهامافطروا عليه من حب الأمن والاستقرار .

والدين ليس شيئا منفصلا عن الانسان، وإنما هو معان وأخلاق تقوم بالإنسان المتدين عقيدة وسلوكا . وفى الانسان مواطن ضعف كثيرة قد يظهر أثرها فيما يتعلق بالإنسان نفسه ، وقد تقع فى الحياة العامة بين الناس : ورسالة الإسلام تعنى بالترغيب فى القضاء على هذه المواطن فى الجهتين جميعا ؛ فالمسلم الذى أشرب الإسلام فى جهاد دائم : جهاد مع نفسه ليقضى على نوازع الشر ووساوس السوء ؛ وجهاد فى مجتمعه يحاول القضاء على قوى الشر والعدوان والوقوف فى وجه المعتدين الذين يكيدون لأهل الحق والخير .. وعدة المسلم فى هذا الجهاد قوة الإيمان والقدرة على الصبر برياضة النفس عليه فى مواطن الجزع

« ومن يتصبر يصبره الله » والإيقان الكامل بالحقيقة القائلة : « ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها » . وبتلك التى تقول : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » ولا ريب أن من يتحصن بهذه القدرات يجمل عنده إيثار الآجلة على العاجلة والتضحية بالفانية فى سبيل الباقية ويكون شعاره دائما شعار المجاهدين الصادقين : « النصر أو الموت » .. « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » ..

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم ∴ تحت طعن القنا وخفق البنود

ولا بد للمسلم دائما أن يكون فى جانب الحق والعدل لقهر الباطل والظلم ؛ والمسلمون من أجل هذا جند الله عليهم أن يدفعوا ما يحمله الأشرار إلى هذا العالم من مفاسد وآلام ، بكل سبيل ؛ وكأنى بهم حين قصروا وجبنوا وآثروا التلذذ بمتع الحياة الزائلة على التنعم بنعم الجهاد الباقية ، قد صاروا غرضا يستهدفه أهل الباطل والأشرار من الناس ؛ وأكبر مصيبة تصيب المسلم فى جهاده الطويل مع نفسه ومع الآخرين ، هى مصيبة الجزع وعدم الصبر ؛ فإن كلمة الجهاد معناها مجاهدة النفس وحملها على ما تكره

من صنوف الآلام والمشقات من ظمإ ومخمصة ونصب واستشهاد؛ وليست العبادات المفروضة على المسلمين إلا تعويدا وترويضا عمليا على الصبر وتحمل المشقات ، كما هو معروف فى الصلاة والصيام والإنفاق والإرهاق فى الزكاة والحج ؛ .. ولكن لماذا تكون هذه السبيل سبيل المسلم ليس له غيرها ؟ .. والجواب أن ذلك كله يتحمله المسلم لا رغبة فى الإرهاق والمشقة والإعنات الفردى الذاتى أو الجماعى ، وإنما يتحمله من أجل الحياة نفسها، من أجل تأصيل قيم الحق والعدل فيهـــا ؛ وإذا فنى من أجل الحياة بعض الأحياء ، فسيتمتع بالهدوء والاستقرار فيها بقية الأحياء ، وسيكون المجال متسعا أمام القيم الخيرة الخالدة لتأخذ طريقها إلى قلوب الناس ، فإذا عاود الشر أن يبدى ناجـــذيه وانحاز إليه فريق من النـــاس جاهدهم أهل الخير حتى يقضوا عليهم مرة أخرى وهكذا فالصراع بين الحق والباطل وبين الخير والشر ماض إلى آخر الدهر ، والمجاهد يعلم أول ما يعلم أن الموت حق وأن ما بعد الموت هو الحياة الباقية ، وأن تلك الحيـــاة للشهداء عزة وسعادة فى جنة عرضها السموات والأرض ، فإذا هو لم يدرك العـــزة والسعادة فى الدنيا فليقاتل فى سبيلها فإن

أدرك ما يريد فقد سعد وأسعد الناس وإلا فليدرك مايريد هناك مؤمنا بأن ما هناك خير وأبقى .

فالإسلام إذن يبغى العزة والسعادة لتابعيه ، وهو يمدهم بأسباب العزة الحقيقية وعلى رأسها رياضة النفس على الصبر وتحمل المشقات فى ثقة وإيمان بالنتيجة المرجوة : ثقة بوعد الله أن ينصر أهل الحق المخلصين وبنصرهم تحلو الحياة ويسعد الناس: وإيمان بما للشهداء فى معارك الحق والباطل من جزاء: « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون... فرحين بما آتاهم الله من فضله... » وفى إقدام الشجعان على مواقع القتال وتضحيتهم بأرواحهم كسر لحدة أهل الشر واستثارة لمعانى الجبن فيهم وإيقاع لعوامل البغضاء بينهم ، فهم عادة تجمعهم مطامع الحياة فإذا لم يحصلوا من مطامعهم على طائل تفرقوا ليبقى كل منهم على ذات نفسه ، وبذلك أيضا تحلو الحياة ويسعد الأحياء .

ولنضرب لذلك أمثلة قريبة إلى الأذهان ، كانت فرنسا تستعمر الجزائر أكثر من قرن وربع قرن، وكانت جنود فرنسا

شياطين فى أرض الجزائر تعيث فى الأرض فسادا فى كل ناحية: فى قتل الأبرياء ...: فى الاعتــــداء على المحصنات من النساء فى إشاعة الانحلال الخلقى بين أهل البلاد : فى محاولة قطع الصلة بين المسلمين ودينهم ، وبينهم وبين لغتهم لغة القرآن ... وجبن من كان شأنهم أنهم أهل الحق أمام أهل الباطل أكثر من قرن من الزمان ... خافوا على حياتهم فقط وفرطوا فى كل شىء، ولم يستطيعوا أن يحتفظوا بحياتهم فماتوا كما تقضى بذلك سنة الحياة. ولم يذكر التاريخ منهم فى تلك الفترة إلا عددا قليـــلا يتراءى كالشموع الخافتة المتباعدة فى ليل حالك الظلام ... وفى جيلنـا غلت دماء الإسلام فى عروق من اصطفاهم الله للجهاد ، للصبر ، لتحمل المشاق الصعبة : فقاتلوا وقتلوا وجاهدوا وصابروا ، وما هى إلا بضع سنوات حتى طهروا أرضهم لمن بقى منهم فصنعوا السلام بالدماء : وأعطوا الدروس للأحفاد والأبناء ، حتى اذا تلمظ الشر مرة أخرى يوما ما كروا عليه كرة أخرى ؛ فلو أن هؤلاء آثروا السلامة الفردية ورضوا بمتع الحياة الرافهة ولم يحملوا السلاح ولم ينادوا بالجهـــاد ماذا كان يمكن أن نتصور الجزائر الآن وبعد الآن ؟ وفى المعركة الأخيرة حين اختل

ميزان القوى فجأة نتيجة للغدر السياسى والخيانة الاستعمارية ولأشياء أخرى ليس المجال مجال الكتابة عنهـــا ؛ اضطرت الجيوش العربية إلى الانسحاب من مواقعها إلى ما عرف بخط وقف إطلاق النار ؛ وكان الطريق مفتوحا أمام قوى الشر والغدر والخيانة ، فلو أننا قبلنا الاستسلام واعتـــبرنا ما حدث معركة فاصلة حاسمة لانتهى كل شىء ' ولدخل تاريخ هذه الامة فى دور إذلال جديد ، ولـكن معانى العزة العريقة الضاربة فى أعماق هذه الأمة التى اكتسبتها من قيمها الدينية وغذتها معاركها النضالية على مدى التاريخ : تحركت بعنف وثقـــة واستشهاد لتعلن أن المعركة مستمرة « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ولتلقن كل داع للهزيمة والاستسلام درسا من دروس الجهاد والصبر وتحمل المكاره فى سبيل هدف أسمى ، من أجل الحق وجنده والخير وأهله ، فلقد خرجت الجموع ليلة ٩-١٠ يونيو ١٩٦٧ غير عابئة بالموت فى سبيل الحق فى سبيل الوطن فى سبيل الحياة ... تلك روح العروبة وتلك روح الإسلام دين الحق دين الحياة . ولقد مات من مات وانتهى أمره ، ولقد كان سيموت اليوم أو غداً فى معركة شرف وانتصار ، أو على أرض الذل والاحتقـار

ولـكن المعنى العظيم الذى نتحلى به هو الصبر ، الصبر الإيجـابى الذى نسابق به الزمن ، كسب الوقت لتوفير أسباب النصر ، ومن هذه الأسباب دعم القيم والمبادىء الدينية فى نفوس الشباب ، ومنهـا إعداد أسلحة الحرب لتـكون أقوى من أسلحة العدو وأفتـك بجموعه ؛ ومنهـا اغتنام الوقت الـكافى لتدريب المقاتلين وتصعيد كفاياتهم حتى يتعودوا على تحمل كل ما يخطر على البال من أحداث ؛ وذلك كله وغيره مما يحسن الحديث عنه المختصون، يحتاج إلى وقت طويل يجب علينا فيه أن نتجمل بالصبر وأن نتحمل البذل ، وألا تلعب بعقولنا الدعايات المسمومة التى يحملها الأثير من أبواق العدو إلى كل اتجاه ... وتلك كلها صفات المجاهدين فى الإسلام الذين ينشدون السلام العزيز ، وينفرون من الاستسلام الذليـل مهما تحملوا فى سبيـل العـزة من وقت وجهد ومال .

ومن هذه الحقيقة كان لابـد للمسلم كإنسان حريص على أن تكون الحياة نقية طاهرة تصلح ميدانا للحق والعدل وتأبى الباطل والظلم ، أن يتحلى دائما بأخلاق المجاهدين: يجاهد نفسه ليحملها

على الحق ، ويجاهد أهل الباطل ليحملهم على الحق . . . تلك سبيل المسلم ولا سبيل له غيرها . . .

ولكن من أين استمد المسلم هذا الحق لنفسه ؟ وهنا نحب أن نقرأ معاً قوله تعالى: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز» ولعل القارىء ليس فى حاجة الى بيان أن هذه الآية الكريمة نزلت فى المدينة « بعد الهجرة » وفى السنة الثانية منها ، أى بعد أكثر من أربع عشرة سنة من البعثة ،لم يؤذن فيها للمسلمين بقتال: ومعنى هذا أن المسلمين لم يؤذن لهم بحمل السلاح لإكراه غيرهم على الإيمان بدينهم واعتناق عقيدتهم ، فقد كان المسلمون حين نزول هذه الآية أمة قائمة لها أرضها المحددة وشعبها المتميز ودستورها المرتضى وقائدها المطاع ، وكل ذلك تم لهم دون قتال أو إكراه ، مما يجعل الفرية الشائعة عن الإسلام فى كتب بعض المتحيزين من

خصومه مستبعدة تماما ؛ ؛ . . والناظر فى هذا النص الكريم يضع يده على أمور هامة .

أولها : أن الذين يقاتلون أذن لهم فى القتال بسبب واضح هو أنهم ظلموا فشأن المسلم إذن ألا يرضى الظلم بل يدفعه عن نفسه وعن غيره ، ولو وصل الأمر إلى حد القتال ، فالشعور بالظلم سبب كاف للوقوف فى وجه الظالمين بالقول الذى يسىء كما يقول تعالى :

« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ، وكان الله سميعا عليما » أو بمنعهم عن الظلم بالوسيلة التى يقتضيها الموقف إلى درجة القتال .

ثانيها وعد الله للمقاتلين لدفع الظلم بنصرهم على عدوهم الظالم بتأكيد قدرته على ذلك : « إن الله على نصرهم لقدير » وتكرير هذا الوعد بصيغة تدل على عموم وتكرار نصر الله لكل من ينصر دينه ويؤيد أولياءه ، مذيلا بأنه قوى قادر على النصر وبأنه عزيز غالب لا يقهر (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

ثالثها : أن اللون الصارخ من ألوان الظلم الذى يعتبر مثلا يضرب أن يصل الظالمون فى ظلمهم إلى حد إخراج الناس من ديارهم بغير ذنب أو جريرة ،بل بسبب أنهم يحملون كلمة الحق ويحاولون إعلانها بألسنتهم دلالة على الإيمان بها: (ربنا الله) . وهذا الضرب من التعبير يعطى الحق لكل مظلوم وبخاصة إذا كان صاحب دعوة أخرج من داره بسبب إيمانه بدعوته أن يقاتل من أخرجوه معتمداً على وعد الله له بالنصر والتأييد.

رابعها : أن هذا المعنى ينطبق تماما على حال المسلمين حينئذ؛ فهم حملة كلمة الله ومتلقو وحيه ، وقد أخرجهم المشركون بالله ظلما من ديارهم ، ومعنى هذا أن أقسى ألوان الظلم التى تبيح حمل السلاح ومباشرة قتال الأعداء قد تحققت فى المسلمين، فكان عليهم أن يحملوا العبء ويضربوا المثل للبشرية إلى آخر الدهر ، ليتم - بالتفاعل البشرى - تحقيق العدل ومحو الظلم ، وليكون لكل مظلوم يحمل دعوة الحق أن يكافح الظلم والظالمين بكل ما يستطيع من ألوان الكفاح والدفاع ...

خامسها . أن شأن البشرية الذى فطرت عليه رغبة الأقوياء في ظلم الضعفاء ، فإذا لم يتسلح الضعفاء بحقهم ، وإذا لم يقفوا في وجه ظلم الأقوياء ، انهار الحق وقوى الباطل، واختفى العدل وظهر الظلم ؛ وما من أجل ذلك كانت الحياة ، فلو ذل الضعفاء أصحاب الحق أمام الأقوياء أهل الباطل ، لضاعت قيم الحياة كلها ، ومن أجل هذا أعطى الله سبحانه وتعالى الأحياء كلهم هذه القضية « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » وفي هذه القضية يكمن الجواب عن السؤال الذى قدمناه سابقا ، وهو كيف يكون لأمة تنادى بالسلام أن تحمل السلاح ، وكأنه سبحانه يقول : أنا أعلم بمن خلقت . فالشأن فيهم أنهم إذا لم يشعروا بقوة غيرهم وباحتمال هزيمتهم أمام هذا الغير يبغون عليه ويمارسون ظلمه والاعتداء عليه . وإذا كان أهل الأديان وأصحاب دعوة الحق يتحرجون من ذلك، فان تسلم لهم أوطانهم بعامة ، ولا مجالات ممارستهم لعبادتهم بخاصة ، فبيع النصارى وصوامع الرهبان وصلوات اليهود ومساجد المسلمين معرضة

للهدم والإزالة والإهانة إذا لم تجد من يدفع عنها ويحمل السلاح من أجلها ، ولعل ما يشهده العالم كله الآن فى الأراضى التى تضم مقدسات المسلمين والمسيحيين من إهانة وهدم وإزالة دليل أى دليل على صدق هذه القضية ..

سادسها : أن تلك السبيل هى سبيل المسلم ، لا سبيل له سواها ، لأنه صاحب دعــوة الحق دائما ، وعليه أن يدافع عنها وعن مجالات إعلانها ونشرها بين الناس وهو حين يدافع عن مجال إعلان الدعوة ونشرها من الأمكنة وغيرها من كل مايدخل تحت إسم «الوطن» إنما يدافع عن سبيل الله ، فالدين ليس قواعد وقضايا ذهنيـة ، وإنما الدين حركة حية وسلوك بين النـاس وبعضهم وبينهم وبين الله، فاذا لم تعز أرضه ذل الدين وذل أهله واختفى الحق وظهر الظلم فاحتاج إلى دفاع وقتال جديد .

سابعهـا : أن الدفاع عن حـدود الوطن وثغور الديار ، وقتال من يخرج من دياره فى سبيل العودة إليها أكثر ألوان القتال «شرعية وقداسة»، وهو قتال فى سبيل الله من مات فيه مات شهيداً بين الناس وهو عند الله على نيته ، ولعل مما يلاحظ

فى هذا المعنى أن قتال المسلمين قبل فتح مكة كان كله حول المدينة وعلى مشارفها دفاعا عن أرض المدينة وحدودها ، ليبقى كل ما فيها ومن فيها من حياة وأحياء ، عزيزاً منيعا لا يقع تحت الأعداء.

وبهذه المقدمة التى طالت رغم الرغبة الشديدة فى الاختصار نستطيع أن نعرف لماذا قاتل المسلمون وحملوا السلاح ، وكيف كانت حالهم لو ظلوا متبعين السياسة التى اتبعوها فى مكة حيث كانوا منبثين فى دورها وأبطحها بعد أن صاروا فى المدينة أصحاب أرض وشعب وسلطان ، وإننا لنعرف أن هناك فلسفات دينية سابقة قامت على سياسة إدارة أحد الخدين لمن ضرب الآخر ، ولكننا نعرف كذلك أن هذا الشعار لم يطبق على أرض الواقع من الدول التى تدعى الإيمان به ، وإنما فرديا على سبيل القدوة عندنا وعندهم : (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ولكن هل تقوم هذه الفلسفة وتنهض بأمة تريد أن تحقق قول الله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ؟

إن أهل الحق لابد أن يكونوا أعزة بالحق الذى يحملونه مهما كانت قوة الباطل ...

« غزوة بدر الكبرى »

كانت غزوة بدر الكبرى ذات عبر وعظات وأحداث ومعجزات جعلتها حدثاً غريباً فى عالم الأحداث البشرية حتى لكأنها عمل إلهى ربانى صرف كان لابد منه لتمام هذا الدين وتكوين هذه الأمة التى قال الله فيها « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ، فهى فى كلمة قصيرة : « لقاء غير مدبر بين المسلمين الذين يناهزون الثلثمائة مجاهد وبين المشركين الذين يزيدون على الألف فى مكان اختار المشركون منه الوضع الملائم لهم أولا ، ومعهم الزاد الكثير والسلاح الوفير والظهر والذبائح يملكها صناديد قريش وعظماؤها ، ثم ينتهى بانتصار باهر يظفر به المسلمون على فقرهم وقلتهم فيقتلون ويأسرون ويغنمون ويعود المشركون إلى مكة مهزومين منكسرين » ورغم قصر هذا اللقاء فى حساب الزمان ، فقد كانت فيه وقبله وبعده عبر وعظات ودروس يشيخ الزمان و [illegible] وما يزال الدارسون من البشر كلهم مسلمين وغير مسلمين يأخذون منها ما ينير لهم الطريق وييسر لهم السبيل سواء فى ظروف الأمن والسلام أم ظروف الحرب والنضال .

وإذا سرنا بترتيب زمنى فإن أول هذه الدروس التى يجب أن نتعلمها : ١- **التذرع بالشجاعة حين لايكون لها بديل سوى التخاذل والاستذلال » ...**

فقد خرج المسلمون بادىء ذى بدء غير مصممين على القتال وإنما كانت تتراءى أمامهم أموالهم التى تركوها فى مكة حين الهجرة يتداولها المشركون فى التجارة ذهابا وجيئة مارين فى كليهما بحرم المدينة وحماها ، فنهضوا لمقابلة إحدى قوافل هذه التجارة لعل الله أن ينفلهموها ، ولما تغير الموقف وأفلتت القافلة التجارية بالعير ، وترامت الأخبار بقدوم النفير ، قاس بعض المسلمين الوضع بالمقاييس البشرية وكرهوا أن يلاقوا أعداءهم وجعلوا يجادلون ويحاورون ليثبتوا أنه لافرق بين إقدامهم على القتال حينئذ وبين الانتحار ،وبدا أنه كان بودهم أن يظفروا بالعير ولا يلاقوا النفير ، فلما وعدهم الله إحدى الطائفتين وثقوا بوعده وكانوا رجالا شجعانا ثقة وإيمانا بوعد الله رغم أن كل موازين القوى مختلة بين الفريقين ، ولما استشارهم الرسول الكريم الشجاع ليبدوا رأيهم قال قائلهم:

« والله يارسول الله ـ لو استعرضت بنا البحر ـ لخضناه معك

ما تخاف منا رجل واحد ، » . . وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك فينا ما تقر به عينك » .

وبهذا الإيمان القوى وبهذه الشجاعة التى تضرب مثلا للأجيال دخل المسلمون المعركة واستجاب الله لاستغاثتهم وأمدهم بالملائكة مسومين ومردفين ، فكان هذا الموقف منهم سببا فى هذا النصر العظيم ، وفألا يأمل فيه الشجعان على مر الزمان . ودرسا يجب أن يعيه المناضلون فى سبيل الحق إلى آخر الزمان. وتصور الآيات الكريمة من سورة الأنفال هذا الموقف تصويراً رائعا : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » ...

٢ – أن جو الحرية يعطى لكل مختص الفرصة للافادة مما تخصص فيه :

فلقد كان القوم يفهمون الحرية على حقيقتها ، وهى أنها مناخ يجد فيه الأحرار القدرة على الفعل أو القول فى حدود مرضية بين القهر والخوف من جانب والفوضى من الجانب الآخر ، فهم أمة تنتظر من كل فعل يفعله قائدهم وزعيمهم أن يكون ذا صلة بالله ، إما على سبيل الأمر به أو على سبيل ترك الحرية فى اختيار أحد الأمرين أو الأمور الجائزة ، وكان كل فرد فيها يعرف أن ما أمر الله به أو نهى عنه لا يدخل الجدل فيه فى مفهوم الحرية ، وإنما يدخل فى مفهوم الإيمان بأنه الحق الذى لا حق سواه ؛ فحقيقته ثابتة بأمر الله أو نهيه ، وإذا نوقش فإنما يناقش من قبيل كيفيته أو سببه إلى غير ذلك . ولقد حدث أن نزل المسلمون أولا على كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام ، ثم أصبح الصباح بعد ليلة المطر والنعاس المذكورة فى سورة الأنفال فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يبادر القوم إلى أقرب ماء من مياه بدر يريد أن ينزل به ؛ وهنا – فى مناخ الحرية – وجد الحباب بن المنذر فى نفسه الشجاعة . ليسأل رسول الله : أهذا منزل أنزلكه

الله تعـــالى لاتتقدمه ولاتتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ . . فقال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، قال هذا ليس بمنزل فانهض يارسول الله بالناس حتى تأتى أدنى مـاء من القوم فإنى أعرف غزارة مائه فتنزل به ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء فنشرب ولايشربون .. فقال صلى الله عليه وسلم : أشرت بالرأى فنهض ومن معـه من الناس ... فعمل الحباب وسؤاله رسول الله فيه درس بليـغ ، واستجابة رسول الله فيها درس أبلغ . فالحباب بن المنذر يسأل أولا : هل هناك أمر من الله تعـالى بالنزول فى هذا المكان ؟ ومعنى هذا أنه إذا كان أمر الله قد نزل بذلك فهو سينصـاع للأمر ويقبله دون مناقشة ، ولم لا ؟ ألم ير أن المطر نزل فى الليلة الماضية على الكثيب الأعفر فتطهر منه المسلمون وأملوا فى رعاية الله لهم وتلبدت بالمطر أرض الكثيب فثبتت عليها الأقدام؟!! فلما أجيب بأن ذلك اجتهاد من النبى موجه من الله ليحـدث ماحدث فتثبت القيم وتتأصل الأصول الحقة للقيادة الرشيدة ، وجد فى نفسه الشجاعة لإبداء رأيه الحر الخاص ، وبتعبير العصر « تقريره الفنى » . ويتلخص فى جملة واحدة : هذا ليس بمنزل ..

ولولا الحرية التى يشعر بمناخها الحباب ما استطاع أن يتساءل أمام القائد بما تساءل به ، . . وأما استجابة الرسول للصحابى الجليل فتدل دلالة بالغة على أن القائد الرشيد هو الذى يمكن الإخصائيين فى كل مجال من إبداء رأيهم والاشتراك الفعلى فى التخطيط لكل شئونهم حتى يكون فى كل مجتمع جيل ثان يستطيع حمل الأمانة والحفاظ عليها لتصل إلى النـــاس على الوجه المرغوب فيه .

وهذه إحدى العـــبر والدروس التى ينبغى للمسلم حاكما أو محكوما أن يرعاها حق الرعاية .

٣ ــ أن مقاييس النصر والهزيمة فى المعارك ليست بالضرورة الاختلاف فى العدد والعدة :ــ

وإنما العبرة فى هذا المجال بإرادة النصر والإصرار على هذه الإرادة ، وفى محيط المسلمين لانجد مسلما حقا يريد شيئا ويعتقد أنه وحده يستطيع تحقيق إرادته ، وإنما المسلم دائما حين يريد يرد إرادته إلى إرادة الله ، وما عليه إلا أن يصل بالاقتناع الصحيح إلى أنه يجاهد فى سبيل إحقاق الحق ؛ ثم يتفانى ذاتيا فى هذا الجهاد مؤمنا بأن حياته رخيصة إذا قيست بسيادة وحياة الحق الذى

يقاتل من أجله ؛ ومؤمنا بأن الله لابد ناصر للحق ومظـــهر له ومبطل للباطل ومزهق له ، فالمسلم المجاهد فى هذه السبيـل إذا أدرك فى حياته ما يبغى فذلك أمله ، وإذا مات دونه مات قريراً لأنه وقف فى وجه الطغيان وقرب النتيجة من التحقيق خطوة ، وليتمتع بها من بعده من يشاء الله له المتاع، على أن الحياة كلها ـ فى نظره وإيمانه ـ متاع قليل ..

وفى هذا الموقف يحلو لى أن أضع أمام القارىء قـوله صلى الله عليه وسلم حين التحم المقاتلون : اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإيمان اليوم فلا تعبد فى الأرض . فالأمر من الناحية البشرية واضح ، ولـكن ديننا يراد له الظهور على الأديان كلها لا بد أن ترعاه يد الله .

وإذا العناية لاحظتك عيونها ∴ نم فالمخاوف كلهن أمان

والمسلمون فى عصرهم الحاضر ، وقـــد تألبت على نهضتهم الحديثة كل القوى الشريرة فى الأرض بحاجة إلى أن يتمثلوا هذه العصابة من أهل الإيمان حتى يكونوا بحق جند الله وحتى يصدق فيهم حينئذ قوله تعالى : « وإن جندنا لهم الغالبون » .

وحتى يقال فى شأن أعدائهم كما قيل فى المشركين يوم بدر « سيهزم الجمع ويولون الدبر » .

٤ ــ عبرة الشورى ودروس الديموقراطية على أعلى المستويات وعلى أحدث الطرق فى العصر الحاضر:

ولقد تجلى هذا المعنى قبل المعركة وبعدها ، وماحدث منه بعد المعركة حديث عجب ؛ ولعل ما مر فى أول الدروس فى هذه الغزوة يلقى ضوءاً شوريا وديمقراطيا واضحا ؛ فالجماعة الإسلامية الذاهبة لعير التجارة وجدت نفسها فى موقف متغير ، موقف فيه من الشدة الظاهرة أكثر مما فيه من الفرج ،وكان من الممكن لو كان القائد غير القائد أن يفرض على جماعته خطة معينة: إما الرجوع إلى المدينة وإما الإقدام على القتال ، ولكن القائد النبى وقف ـ بعدما تبين له ـ ليقول :ـ

أشيروا على ... ولم يتقدم إلى مواطن القتال إلا بعد موافقة المهاجرين والأنصار جميعا موافقة شجاعة كان بعض ما قيل فيها ما رويناه لك فى الدرس الأول ؛ ذلك إلى نزوله على رأى سعد بن معاذ فى بناء عريش له صلى الله عليه وسلم أشبه بالمظلة ليكون

فيه مشرفا على المعركة قائلا له فى إخلاص المؤمن ويقين الواثق بما عند الله :

« يارسول الله - ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ، وندع عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى لحقت بركائبك بمن وراءنا، فقد تخاف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك » ... إلى غير ذلك مما كان قبل المعركة وفى أثنائها ، ... أما حديث الديمقراطية بعد المعركة فقد كان فى طريقة معاملة الأسرى الذين وقعوا فى أيدى المسلمين ... فقد استشار النبى صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه فى شأن الأسارى، فأشار أبو بكر والأغلبية معه باستبقاء الأسرى وأخذ الفداء منهم وعدم قتلهم، فيكون ما يؤخذ منهم عونا للمسلمين على شئون الحياة مع الأمل فى أن يهديهم الله للإسلام فيكونوا فى فى المستقبل عضداً له لا عليه ، مبتدئا بقوله : يارسول الله أهلك وقومك .

ورأى عمر بن الخطاب أن الأمر إيمان أو كفر : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » فمن أسلم فهو من المسلمين ومن بقى مشركا يسلم كل رجل من المشركين إلى رجل قريب له - فى النسب - من المسلمين ليقتله، حتى يعلموا أن الأمر جد وأنه ليس لمشرك أيا كان مودة فى قلب مسلم .

فبماذا أخذ النبي ؟ أبرأى عمر وهو واضح فى صدق الإيمان واليقين أم برأى أبى بكر والأكثرية معه ... لقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأى أبى بكر رضى الله عنه وأعرض عن رأى عمر فقبل فداء الأسرى إلا النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط فقد أمر بقتلهما لأحداث اقتضت ذلك.

وهذا التصرف تصرف ديمقراطى ما فى ذلك شك لأنه أخذ برأى الأغلبية وهذا درس واضح الدلالة تعلمت منه الأمم الشيء الكثير ثم أنكرته على الإسلام ، ولكن الدرس العجيب فى معنى الديمقراطية الحديثة فى هذا الموضوع هو ما يأتى . . لقد حدث أن الله سبحانه وتعالى أنزل عتيب توزيع الأسارى وأخذ الفداء قوله تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض

تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ،لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم،فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم »... فبكى النبى وأبو بكر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كاد ليمسنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب . . وهذا هو الأمر العجب ، فإذا كان ما حدث خطأ ففيم الإبقاء عليه ؟ ولماذا لا نجمع الأسرى ونقتلهم ؟ وهنا تعطى الآية الأخيرة الحكم الديمقراطى الذى يعتبر أحدث الأحكام فى هذا الشأن ، وخلاصته : أن هيبة القرارات الرسمية لا يجوز أن تمس ما دامت صادرة عن أغلبية أهل الرأى ، وإن كان رأى الأقلية فى حقيقته ـ كما بين الله ـ هو الصواب ... وفى جملة : يجب خضوع الأقلية ـ فيما لا نص فيه ـ لرأى الأغلبية وإن تبين أن رأى الأقلية هو الصواب ...

أما بعد . . فما أحوج المسلمين الباحثين عن الحق فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والحرب والسلم إلى إرجاع أبصارهم كرة وكرة إلى القرآن الكريم وإلى سيرة الرسول ليأخذوا منها ـ

بالتأنى والاستهداء ـ ما يجعلهم سادة الدنيا وجها بذة الحياة .

٥ ـ **انسانية الاسلام** : إن الذين ينظرون إلى أى شىء فى الحياة من وجه واحد قلما يقعون على الحقيقة من هذا الشىء ، ولقد نظر أعداء الإسلام إليه من زاويتهم التى يعجبهم ويرضيهم أن ينظروا إليه منها ولو قد أحاطت نظرتهم بكل الزوايا لتغير الحال؛ إذا لم يكن إلى الولاء له فلا أقل من إعطائه كلمة الحق التى هو بها جدير ؛ فها هنا حرب وطعان ونزال وقتل وأسر ، وهذا وجه واحد من الصورة ، وها هنا أيضا تسامح ورحمة وعدالة فى المعاملة كانت الجزيرة تحلم بها حتى وجدتها حقيقة واقعة فى معاملة المشركين الأسرى ، ولقد انتظر الأسرى فى كل العصور التالية لغزوة بدر معاملة شبيهة بما حدث للأسرى فيها ، ولكن العالم العربى شهد على أرض الأندلس وفى شمال إفريقيا وفى الحروب الصليبية وغيرها من الحروب التى وقع فيها العرب والمسلمون أسرى فى يد غيرهم فظائع فى معاملة الأسرى يندى لهـا جبين الإنسانية فى كل عصر وجيل ، ومن المفارقات المؤسفة أن الذين فعلوا بالمسلمين كل هذه الفظائع هم الذين يصفونهم بالهمجية والتوحش

والشوق إلى إراقة الدماء وإزهاق النفوس . فلقد حدث أن سمع النبي الرحيم الإنسان أنين بعض الأسرى من أثر شد الوثاق عليهم ، فلم ينم رسول الله وبدا للصحابة تأثره مما يسمع من الأنين ، ولقد ظنوا أنه إنما يألم لأنين عمه العباس بن عبد المطلب فذهبوا يطلقون العباس من قيوده ، ولما علم صلى الله عليه وسلم بما صنعوا أمر بأن يفعل بالأسرى كلهم مثل ما فعل بالعباس عمه ، ولعل هذا من إرهاصات الوحي ، فغير قليل من الرواة يقولون إن العباس كان على الحق غير معلن لإسلامه فكأن شعور النبي بأنين العباس كان شعورا بأنين مسلم يؤمن بالله ويصدق برسوله فكان له في نفس الرسول رنين خاص . على أننا نروي هنا ما رواه أصحاب السير في سبب إسلام العباس ، ويتلخص في أن النبي حين فرض عليه فداء نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفه عتبة بن عمرو اعتذر بقوله : «لقد تركتني فقير قريش ما بقيت . فقال له رسول الله : فأين المال الذي دفعته لأم الفضل وقلت لها إن أصبت فهذا لبني الفضل وعبد الله وقثم ؟ ... فقال العباس في عجب ! ! . إن هذا أمر لا يعلمه إلا أنا وأم

الفضل فمن أين جاءك خبره ؟ أشهد أنك رسول الله حقا ...
ويدخل فى هذا ما حدث فى قصة أبى العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم من معانى الإنسانية والرحمة. وصدق الله العظيم ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين .

« غزوة أحد »

لئن كانت غزوة بدر نصراً إلهيـا يكاد يكون معجزة كاملة حظ الإنسان فيها ضئيل ، فإن غزوة أحد كانت وستظل نشاطا إنسانيا لهأسبابه وأحداثه ونتائجه يعتبر مدرسة تسير معالإنسانية تعلمها الدروس التى تحتاج إليها فى تاريخها الطويل ؛ وكما تقدم فى دروس بدر نقول هنا فى عبر أحد : إننا لن نستطيع استيعـاب الدروس كلها ، ومهما ظننا الاستيعاب فستبقى بعد ما نذكره من الدروس دروس ودروس . واليك بعض مانتأثر به : ـ

١ ـ **تأصل عداوة اليهود للمسلمين** ... قد يتساءل المعنيون بقضية فلسطين بعد أن يستبد بهم الضيق من مجرد التفـكير فى الأحداث المتتابعة منذ أوائل النصف الثانى من القرن الماضىوالتى انتهت أخـيرا بتوطين اليهود فى فلسطين أرض العرب ومسرى رسول الإسلام ومهبط وحى أكثر الأنبياء ، قد يتساءلون عن السبب فىاختيار فلسطين بالذات ورفض أوغندا مثلا أو استراليا أو غيرهما من الأماكن التى كان يمكن لليهود أن يعمروهـــا ويعيشوا فيها فى سلام ؛ قد يتساءلون عن ذلك بعد أن يرفضوا

ـ فى ذكاء ـ ماتردده أبواقهم وأبواق سادتهم من المستعمرين من دعوى الوعد بأرض فلسطين لليهود؛ وبعد أن يناقشوا هذه الدعوى مناقشة تؤدى إلى التساؤل عمن أصدر الوعد لهم وعمن صدر لهم الوعد، وعن مدى قدرة الواعد على تحقيق وعده المطلق أو المشروط حتى لا يحققه لهم إلا عن طريق معصيته والفجور فى معاملة الناس وفى عصر وايزمان وبن جوريون وموشى ديان . حملة تلك الأسماء التى كنت أود ألا أدنس صفحات هذا الكتاب بذكرها فيها . أقـول: قد يتساءل الدارسون لقضية فلسطين بعد مناقشة ذلك كله عن السبب فى الإصرار على توطين اليهود والتمكين لهم فى فلسطين بالذات والقيام بتشجيع هجرتهم من كل مكان إليها وبحشد أشدهم شراسة وتطرفـا وإمدادهم وهم مايزالون مواطنين فى دولة عربية تحت الانتداب بكل أسباب القوة والتفوق على العرب وإغرائهم بشن الحروب والغارات عليهم تعميقا للعداوة بينهم مما لم يحدث له ـ فيما نعلم ـ مثيل فى التاريخ ؛ ولو أن هؤلاء المتسائلين درسوا قضية اليهود فى يثرب بعد الهجرة وظهور الإسلام ، ودرسوا مدى شهوة الانتقـام

والإذلال والفتك والإبادة عند الغرب المسيحى بالنسبة لكل مايتصل بالإسلام والعروبة بسبب، لكان لهم رأى آخر مستمد من ملاحظة هذه الأحداث كلها ؛ فلقد شبع الغرب المسيحى فى المسلمين إيذاء وتقتيلا وفتكا على يد الإسبان تارة ، وبوساطة مااخترعوه من حرب صليبية قذرة نسبوها إلى الصليب المقدس عندهم ظلما ثم أخيرا على يد الفرنسيين والطليان والإنجليز وغيرهم تارة أخرى، ومع ذلك لم يبيدوا الجنس ولم يقضوا على الدين ، وإن كانوا قد بلغوا من ذينك بعض مايريدون؛ وبالدراسة التاريخية الواعية والذكاء الخارق أصروا على أن يتركوا هذه المهمة أمانة بين يدى اليهود بعد أن يزرعوهم فى مكانهم ذلك : مستغلين مايعرفون من تأصل العداء بين اليهود والمسلمين بالذات ، وما استقر فى نفس دهماء اليهود من دعوى الوعد المزعوم ؛ وما يوجد من شوق فى نفس زعماء اليهود للتوطن فى وطن خاص ككل شعوب الأرض ؛ وبهذه الطريقة يستريح الغرب المسيحى من بكاء اليهود على أبوابه ورجائهم العون لتوطينهم فى وطن يجمع شملهم بعد تفرق دام آلاف السنين كما يتحقق بأقل الجهد

والتكاليف ما كان يريده ويباشره بنفسه من استنفاد لكل جهد غربي أو تقدم إسلامي ؛ وفي هذا المجال ينسى أموراً لا تنسى؛ منها ما يعتقده كل مسيحي من أن اليهود هم قتلة المسيح وصالبوه ومتهمو أمه بكل ما لا يستطاع سماعه ، ومنها أنه وقف في وجه كل دولة إسلامية تريد أن تسجل في دستورها الممنوح أنها دولة إسلامية ، مدعيا أن إقامة دولة عل أساس الدين لا يناسب روح العصر ، أما إسرائيل فلها وحدها أن تقوم على أساس الدين والعنصرية جميعا وبيد الغرب المسيحي نفسه؛ ولعل هذا العون هو حبل الناس، وحبل الناس كما نراه سريع التمزق والانقطاع، وإذا انقطع مدد الناس لليهود فلن تكون إسرائيل ؛ أقدم بهذا كله بين يدي الدروس المستفادة من أحداث غزوة أحد ، بعد أن استوعبت الدور القذر الذي كان يلعبه اليهود على مسرح الحوادث في تلك الفترة التي تلت نصر الله في بدر وامتدت حتى غزوة أحد ، مما ملأني يقينا بأن دور اليهود دائما هو التأليب والدس والوقيعة ، وبأنه لو لم يكن لليهود وجود في يثرب حين وقوع هذه الغزوات لتغير وجه التاريخ الإسلامي . ولكن

هكذا أراد الله لتظل لهذه الأمة دعوة الجهاد فى سبيله إلى أن يشاء مايشاء .

فلقد حدث يوم نصر الله فى بدر أن أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين من أصحابه بشيرين لأهل العالية وأهل السافلة من المدينة ،وكان اليهود متيمين فى يثرب وحولها ودخلها المسلمون وأبقوا عليهم فيها بعد عقد معاهدة مع كل قبيلة من قبائلهم الثلاث الكبرى : بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ، ولقد كان من أغنى وأشهر زعمائهم فى ذلك الوقت رجل يسمى (كعب بن الأشرف) وكان من المأمول أن يشارك اليهود المسلمين فرحتهم بهذا النصر وبالقضاء على صناديد الكفر والشرك بالله الذى يؤمن به اليهود والمسلمون جميعا ، ولكن حقد اليهود على المسلمين أعمى بصائرهم عن الإحساس بهذا الشعور الدينى المنتظر ، فبدا من تصرفاتهم ومن أقوالهم مايدل على حزنهم وأسفهم لنصر المسلمين على المشركين ، وراح كعب بن الأشرف هذا وكثيرون غيره يقولون : والله لئن كان محمد أصاب هؤلا الأشراف والملوك، لبطن الأرض خير من ظهرها ، وجعل كعب

هذا ـ وكان شاعراً ـ يقول الشعر فى هجاء المسلمين ورثاء قتلى بدر والتشبيب بنساء المسلمين ، ثم سافر ومعه وفد كبير من يهود لمواساة أهل القتلى فى مكة ولحثهم بما فى شعره من حماسة وتشجيع على أخذ الثأر والاستعداد لحرب أخرى ، واعداً المشركين بأن اليهود سيكونون معهم على المسلمين ؛ وهكذا نلمس العداء المتأصل فى نفوس اليهود للمسلمين حقداً وبغياً وخوفا من ظهور الإسلام على اليهودية فى بلاد العرب منذ تلك الأيام الضاربة فى أعماق التاريخ بين اليهودية والإسلام ؛ فرغم الاتفاق فى الإيمان بإله واحد والنبوات واليوم الآخر نجدهم لا يقر لهم قرار ولا يهدأ لهم بال إذا حصل المسلمون على أى خير ، وإذا كانت تلك حالهم قديما فقد كانت نتيجتها أن قضى المسلمون عليهم وخلصت بلاد العرب للعرب والمسلمين ؛ وإذا كانت تلك حالهم مع العرب والمسلمين حديثا فكثيرا ما يعيد التاريخ نفسه ، وأرى أن تباشير ذلك قد أقبلت من قريب ، ولا تحتاج منا لتحقيقها إلا أن نحاول أن نكون كما كان أسلافنا حقاً مسلمين ... تلك عبرة عابرة ودرس يجب استيعابه والانفعال به تعلمنا إياه أحداث غزوة

أحد عند النظر فى الفترة التى كانت بين انتهاء بدر بالنصر وقيام أحد بما فيها من دروس ...

وفى هذه المعانى كلها يقول تعالى: «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا» ...«ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله، وإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل موتوا بغيظكم، إن الله عليم بذات الصدور. إن تمسسكم حسنة تسؤهم، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط»..

وكان من عقابهم الدائم الذى استحقوه فى أصولهم بسبب مخالفة الأنبياء وقتلهم واستحقته فروعهم بسبب عنادهم وكفرهم برسول الله وبالقرآن رغم معرفتهم صدقهما .. كان عقابهم ذلك النداء الصارخ الدائم «وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب» ...

٢- والدرس الثانى من دروس غزوة أحد : **ضرر تغليب المصلحة الخاصة على مايبدو من مصلحة عامة** :ذلك أن ناسا من

المسلمين الذين لم تسعدهم المقـــادير بالخروج مع الرسول فى غروة بدر ، ألحت عليهم رغبتهم فى تعويض هذا التخلف فى أن يطابوا إلى رسول الله الخروج إلى أحد لملاقاة المشركين من قريش وحلفـــائهم من الأحابيش مبررين طلبهم بأنه يجعل المشركين يعرفون للمسلمين شجاعتهم وإقدامهم وإقبالهم على قتال عدوهم مهما كان أمره .

وكان رسول الله بعدما تلقى كتاب عمه العباس الذى يخبره فيه سراً بخروج قريش إلى يثرب لقتـــال المسلمين ، كان يرى البقاء فى مدينته والدفاع عنها ، وعدم الخروج، وكان هذا رأى عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين ، ولكن الذى حدث أن هؤلاء المسلمين الذين فاتتهم بدر استطاعوا أن يكتلوا الأغلبية على رأيهم ؛ فنزل الرسول على رأيهم كارها ، ودخل الى بيته بعد صلاة الجمعة ومعـــه صاحباه وبينما هما يلبسانه ويعممانه ظن المسلمون فى الخارج أنه لن يخرج من حجرته للقتـــال ، فقال سعد بن معاذ وأسيد بن حضير لمن كانوا فى انتظـــار خروج الرسول إليهم : استكرهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم على

الخروج . . فإذا خرج من حجرته فردوا الأمر إليه ، ولكنه خرج لابسا ملابس الحرب ومتقلدا سيفه ، فلما قالوا له : ما كان ينبغي لنا أن نخالفك فاصنع ماشئت، رد عليهم بتلك الجملة المشهورة التي تعود المسلم على حسم الأمور الهامة وعدم تركها للجاج والجدل متى نالت رأى أغلبية الناس ، قال لهم : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه ...

أقول : نزل الرسول على رأى الأغلبية مع كراهيته له ، ولم ينزل عبد الله بن أبي على رأيهم ؛ بل جعل يزين رأيه ويقويه بأمرين أمر مجرب جرت به العادة وأمر يخطط فيه للمعركة وكيف تكون إذا نزل الناس على رأيه : فقال في الأمر الأول: يارسول الله أقم بالمدينة لاتخرج إليهم، فوالله ماخرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولادخلها علينا إلا أصبنا منهم : وقال في الأمر الثاني : فدعهم يارسول الله . . فإن أقاموا عند الجبل أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا ، رجعوا خائبين كما جاءوا » . .

فالرأى الأغلب انساق مع الحماسة ونداء الشجاعة وما إليها ناسيا أنه يقرر مصير أمة ومستقبل بشرية وكيان دين،والرسول كما قررنا سابقا كان ينفذ رأى الأغلبية - فيما لم ينزل فيه وحى - وإن كان على غير رغبته؛ ومن هذه القصة نتعلم أن مواقف الحرب والسلام يجب أن تحظى بالدراسة المستأنية الواثقة كلما أتيحت الفرصة لهذه الدراسة ، ليكون الرأى حاسما والقرار قاطعا لا تردد فيه ، مع مراعاة عمل كل ما فى الوسع لإغلاق باب الفرقة والخلاف بين المسلمين ، فقد ترتب على قرار الخروج إلى المشركين أن انخذل ثلث الجيش نزولا على رأى ابن أبى .. مما آلم النبى والمسلمين أيما إيلام . وفى هذا مافيه ...

٣ - **اختيار أولى الفرص بالاغتنام:** لقد بدأت الحرب لمصلحة المسلمين بشكل ملحوظ ، سواء فى ترتيب موقف الجيش أم فى عدد القتلى من المشركين بادىء بدء ، حتى إنه ما حمل اللواء واحد منهم إلا قتل فكان شؤما على كل من حمله ، وسقط دونه أحد عشر رجلا على التوالى وكانت نكبة آل أبى طلحة بهذا العلم كفيلة بإثارة الرعب فى قلوب المشركين حيث قتل منهم سبعة على التوالى

كلهم حمل العلم ، وتمكن المسلمون فى أول ساعات المعركة من إزالة المشركين عن أماكنهم فانهزموا وولوا هاربين ، وتبعهم المسلمون ينهبون المعسكر ويستولون على مافيه من الغنائم ؛ وهنا استولى على المسلمين اغتنام فرصة الاستيلاء على حطام المعركة قبل أن تنتهى ؛ وكان يمكن أن تكون هذه الحالة نهاية المعركة ، لولا أن خيالة المشركين اغتنموا فرصة أخرى :

مال المسلمون إلى المال فمالت بهم نتيجتها عن الغاية التى يرجونها ، فكانت فرصتهم فى تحقيق مايرجون أبعد شىء عن التحقيق ، أما خالد قائد خيالة المشركين فقد قويت فى نفسه إرادة النصر فانتهز فرصة وقوع المسلمين وبخاصة رماتهم على الغنيمة يجمعونها وكر عليهم كرته القاتلة التى تغيرت بعدها نتيجة المعركة من انتظار نصر كبير إلى وقوع هزيمة كبيرة ، فما أبعد الفرق بين الفرصتين !!!.

ولعل هذا الدرس يعطينا حقيقة النصر ، فليس النصر بالاستيلاء على المال والسلاح ، وإنما النصر يتحقق بإفقاد العدو إرادة المقاومة ، ولا يفقد العدو هذه الإرادة إلا بعد شعوره

بفقد كل شيء ؛ ... وفى هذا الموقف ينبغى أن نتساءل : هل كان القائد فى غفلة عن التنبيه لهذا الموقف ؟ والجواب يرويه الثقات من رواة السيرة فإن القائد النبى قال للرماة : « إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم وهم قتلى فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، . ثم يقول : اللهم إنى أشهدك عليهم » .. والسبب فى هذا التنبيه الشديد ، أن المسلمين لم يكن معهم سوى فرسين وكان مع المشركين مائتا فرس ، فكانت القيادة الرشيدة تقضى بوقوف الرماة ثابتين فى وجه خيل المشركين ، لأن الخيل لا تقبل على النبل ؛ فكانت الحيلة الوحيدة لانعدام أثر التفوق فى عدد الخيل إفساد جهدها بالثبات وسرعة الرمى وتتابعه ، وذلك تخطيط غاية فى الخبرة الحربية ، وهو نفس التخطيط الذى نفذ فى غزوة بدر حين وقف جماعة من المسلمين يرشقون خيل المشركين رشقا عنيفا فى عيونها ومناخرها فولت الأدبار وهو نفس التخطيط الذى نفذ فى حرب فيلة الفرس حين كان المسلمون يسددون نبالهم لتدخل فى عيون الفيلة دون أن تنكسر على ما تدرعت به

من مضاعف الحديد ؛ ولولا أن حربة الرسول اغتنمت فرصة هي الأخرى لما أصابت عنق أبي بن خلف ليموت منها فى طريق العودة ، فقد كان يلبس البيضة والمغفر والدرع ولم يكن شيء من بدنه ظاهرا حتى يضرب فيه بإصابة قاتلة ، ولما مال برأسه ليحسن التسديد إلى رسول الله ليقتله ظهر جزء من أسفل عنقه بين المغفر والدرع وفى سرعة سريعة كان هـذا الجزء هدف الحربة القاتلة ؛ وهكذا يعطينا الموقف دروسا عدة لو استوعبناها فى حياتنا لكان لها نفع عظيم .

نخرج من هذا بأن القائد الحـذر الناجح هو الذى يخطط للنصر ويجعل للفرصة الطارئة مكانا فى خطته ، فاذا لاحت درسها بما تستحق من سرعة ثم اغتنمها لتكون نصراً غاليا بأرخص الأثمان.. وبأن طاعة القائد وتنفيذ أوامره شأن لا يجوز العدول عنه مهما كانت الحال فإن القائد عادة يرى الأمور من جميع زواياها وربما يعرف من الأسرار ماينبغى كتمانه عن بعض مساعديه ، أما الجند وقادتهم النوعيون فإنهم إذا تصرفوا فى المعركة من ذات أنفسهم فقد تختلط خطة كل منهم بخطة زميله أو تتعارض

معها فتنهار خطة القيادة كلها ويضيع النصر رغم كثرة الضحايا، وهذا ما حدث فى غزوة أحد حين اختار الرماة الفرصة الدنيا فأكبوا على جمع الغنائم واختار خيالة المشركين الفرصة العليا فكروا على المسلمين وخصوا الرماة أنفسهم بأشد أنواع التقتيل؛ فذاقوا ـ وهم سبب الهزيمة ـ أمر كأس من كئوسها المرة.

٤ـ أثر الشائعات فى المجتمع وبخاصة فى أوقات الحروب:

للكلمة فى الإسلام خطرها ووزنها وشرفها وكرامتها ، نجد ذلك فيما يتصل بالوجود كله « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » ونجده فيما يتعلق بخلق الإنسان ذاته كما يقول تعالى تأكيدا لقدرته على أن يخلق عيسى من غير أب ، ولفتا للعقول إلى أن ماتؤمن به دون مناقشة أكبر إعجازا مما تلح فى المناقشة والجدل فيه : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ؛ خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون » ونجده فى دليل الإيمان ذاته ، فقول المشرك أو المجوسى أو النصرانى أو اليهودى أو غيرهم : آمنت بالله ربا واحدا وبمحمد نبيا ورسولا إلى الناس كافة ينقل هؤلاء كلهم بهذه الكلمة أو مثلها من الكفر إلى الإيمان ومن

الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، والكلمة الطيبة الصادقة كالشجرة الطيبة السامقة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء.. والكلمة الكاذبة الخبيثة كالشجرة الخبيثة الرديئة لا فرع لها يرتفع، وليس لجذورها من قرار . . وقد تعرى الكلمة عن القسم ، وقد تؤكد به ، وقد تقال فى صيغة عهد أو ميثاق ؛ فالصدق والوفاء بالعهد نتيجة الكلمة الطيبة والعهد الصادق ، والكذب وإخلاف الوعد ونقض العهد والميثاق نتيجة الكلمة الخبيثة والنفاق المرذول وتلك كلها ألوان فى علاقات الناس بعضهم ببعض وقد تكون على المستوى الفردى أو الجماعى الضيق ، أما إذا أريد للكلمة أن تذيع وتشيع لغرض فى النفس فإن الكلمة تقال لتصير شائعة بين الناس تحدث بينهم أثرها الكبير ، وقد يتورط كثير من الناس فى الإسهام فى ترويج هذه الشائعات دون قصد، وهؤلاء هم المعنيون بالأثر: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم ».

ومن هنا نستطيع أن نحكم بأن الشائعات الكاذبة هى قمة الكلم الخبيث الذى ينبغى للمسلم أن يطهر منه لسانه .

ومن أجل خطر الكلمة الكاذبة أيا كان مجال قولها - فى حديث عادى . فى شهادة زور . فى افتراء على الله ورسوله . فى وقيعة وسعاية بين الناس بالسوء - حذرت الآثار وأنذرت : من يضمن لى مابين لحييه وما بين فخذيه أضمن له الجنة . . . وهل وهل يكب الناس فى النار على وجوههم « أو قال على مناخرهم » إلا حصائد ألسنتهم . . : لاخير فيها هى من أهل النار (فى شأن امرأة تقوم الليل وتصوم النهار ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها) .

وقد حدث فى غزوة أحد حين انكفأ المسلمون على الغنائم يجمعونها وانكفأ معهم الرماة المحذرون من رسول الله نفسه فى أول المعركة ومن قائدهم عبد الله بن جبير أثناءها .. حدث حينئذ أن أقبل رجل اسمه قميئة الليثى على النبى صلى الله عليه وسلم وكان أمامه الصحابى الحافظ القارىء الجليل مصعب بن عمير ، فجعل مصعب يدافع عن النبى صلى الله عليه وسلم حتى تمكن قميئة من قتله شهيداً بين يدى رسول الله فانطلق يصرخ بأنه قتل رسول الله ، ويكفى أن نتصور مدى ماتفعله هذه الكلمة فى محيط قوم مرت بهم الخطوات السابقة عليها : خلاف على البقاء

فى المدينة أو الخروج منها ، انخذال ثلث الجيش مع عبد الله بن أبى ، غلبة وقتال لصالح المسلمين ، ثم شعور بتغير ريح النصر مع تعلق ما بقى من أمل برسول الله وحده ، ارتباك فى الصفوف بسبب ترك الرماة لأماكنهم ، قضاء الخيالة على من بقى ثابتا منهم فى مكانه ومنهم القائد نفسه عبد الله بن جبير ، ثم أخيرا صرخة الصرخات تقول : إن محمدا قتل بيد قميئة الليثى... يكفى أن نتصور هذا الشريط من الأحداث لندرك مدى تأثير هذه الشائعة فى صفوف المسلمين . . وإذا تصورنا هذا كله لا نستبعد ما يرويه الثقات من ذهول المسلمين حتى ضرب بعضهم بعضا خطأ ومن رجوع أكثرهم فى طريق المدينة ، وكما يقول الحافظ ابن حجر : إنهم صاروا بعد هذه الشائعة الكاذبة ثلاث فرق :-

١- فرقة استمروا فى الهزيمة والتراجع إلى قرب المدينة ، فما رجعوا حتى انفض القتال ، وهم قليل وهم الذين نزل فيهم : [إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم] .

٢- وفرقة صاروا حيارى لما سمعوا أن النبى صلى الله عليه

وسلم قد قتل فصارت غاية الواحد منهم أن يذب عن نفسه أو يستمر على بصيرته فى القتال إلى أن يقتل وهم أكثر الصحابة .

٣- وفرقة ثبتت مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم تراجعت إليه الفرقة الثانية شيئا فشيئا لما عرفوا أنه حى .

من هنا نرى كيف تبلغ الكلمة الكاذبة إذا اتخذت لون الشائعة الذائعة ومن هنا نأخذ الدروس فنتعلم احترام الكلمة ، ومن احترام الكلمة ألا نقولها ولا نصدقها ممن يقولها إلا بعد اليقين بصدقها ، حتى إذا أحدثت أثرها الضخم فى المجتمع ، كان الصدق لحمتها وسداها ، وتلاقى بها السبب والغاية ؛ لكن ناسا من الناس فى كل مجتمع تتلمذوا على اليهود الذين افتروا على الأنبياء وقتلوهم ، وكانوا مع المنافقين وراء كل شائعة كاذبة مغرضة ضد الإسلام .

لكن ناسا مازالوا يأبون إلا الكلمة الشائعة التى تقوض بناء المجتمع ، وتشكك فى قياداته ومبادئه ، وتهز من إيمان الشعوب بالقدر الذى يسمح بإيجاد فتنة فى صفوفها ؛ وهؤلاء هم العدو الخفى الأشد خطراً من العدو الظاهر .

فيما حدث في غزوة أحد من إطلاق شائعة قتل الرسول لنا عبرة ودرس كبير وعلينا أن نعيه ، وبوعيه نستطيع أن ننقد كل قول يقال ، فنقبل الحق وننفي الباطل متخذين شعارنا في هذا المقام « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

٥- الدرس الخامس . وكم في هذه الغزوة من دروس :-

ايمان القائد أعظم وسائل النصر : فلعل من المعروف لدى القارىء أساسا من معلوماته عن المعركة وتأكيدا مما سبق عرضه في الكلمات السابقة أن الجيش الإسلامي تمزق وتفرق على نحو يصعب وصفه تفصيلا ، وقد وصفه العلامة ابن حجر فيما سبق إجمالا , ولكنك قد تتساءل عن موقف النبي القائد وعن جهاده وبلائه في هذا اليوم العصيب ، وبخاصة أنك قد تعلم أن عتبة بن أبي وقاص أصاب وجه النبي بالحجارة فشُج وسال دمه الشريف على أرض المعركة ، وأن حلقتين من حلق المغفر قد دخلتا في وجنته ، وعند محاولة أبي عبيدة بن الجراح نزعهما سقطت ثنيتاه وكسرت رباعيته ، وفي دفع المسلمين إلى الخلف وقع النبي في إحدى الحفر التي صنعت بمعرفة أبي عامر ، فأخذ بيده علي وساعده على رفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى

قائما   قد تتساءل بعد ذلك كله وقد انفض عنه أصحابه مأخوذين بشائعة قتله : ماذا يفعل؟ هل تخاذل؟ هل تراجع؟هل لجأ إلى الدعاء على أعدائه لتحدث المعجزة الخارقة ـ على أن الأمر لم يخلُ من إعجاز ـ ؟. والجواب أن النبي صلى الله عليه وسلم رغم ذلك كله ثبت فى مكانه ينثل كنانته لسعد بن أبى وقاص ويقول له مالم يقله لغيره ، أرم فداك أبى وأمى ، ويدفع عن نفسه بنفسه حتى أن أبى بن خلف لما أقبل عليه يريد قتله تناول حربة من الحارث بن الصمة وطعنه بها فى عنقه فمات وهو عائد إلى مكة.. وأبى هذا هو الرجل الوحيد فى حياة رسول الله الحربية كلها الذى قتل بيد رسول الله دفاعا عن النفس فى أحرج اللحظات ... وينادى فى الناس : إلى عباد الله إلى عباد الله ، ويعاتبهم على مواقفهم فيعتذرون ، حتى جمع حوله عددا معبأ ليستميت فى الدفاع عن الحق الذى يؤمن به ، مما جعل قريشا وحلفاءها يرون أن من مصلحتها الاكتفاء بما حدث والرجوع إلى مكة وعدم محاولة دخول المدينة، ولو لم يقف رسول الله وقفته المؤمنة الواثقة لكان من الممكن أن تقضى قريش يومها على كل ما كانت تنبض به حياة المدينة من قيم ومبادىء جديدة ،ولكنه

الإيمان والتضحية والشجاعة الخارقة مما يتحلى به القـائد حتى استطاع أن يجمع جيشه بعد تفرق وتمزيق ، على أن لهـؤلاء المستجيبين للنداء حقهم من التقدير والخلود ، كما أن لأولئك الذين ثبتوا مع الرسول فى موقفه حق التنويه والإشادة والتسجيل حتى يتعلم منهم شبابنا الواعى الشجاع كيف تسمو بالرجال مواقفهم ، وكيف يصل الإيمان بقضية الموت إلى حد الثبات والصمود فى وقت كانت الرماح كأشطان بئر فى لبان الأدهم كما يقول عنترة ، ذلك الوقت الذى كان الموت فيه حتما من الحتم وكانت النجاة فيه ضربا من المحال ، ولكن هؤلاء الثابتين أحبوا الموت فوهبت لهم الحياة. تلك أمثلة ودروس نضعها أمام أمتنا الحاضرة واللاحقة حقا واجب الأداء لها ولأمتنا السابقة على سواء. وتأكيداً لهذا الحق نذكر الأسماء : ثبت مع رسول الله فى موقفه فى أشد أوقات المعركة أربعة عشر رجلا وامرأة : أبو بكر وعمـر وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة والزبير وأبو عبيدة وهؤلاء من المهاجرين وأبو دجانة والحباب بن منذر وعاصم بن ثابت والحارث بن الصمة وسهل

ابن حنيف وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهؤلاء من الأنصار، وأما المرأة فهى أم عمارة ، وربما عرضنا خبرها بعد . وهذا لا يعنى أن كبار الصحابة المعروفين بجهادهم وشجاعتهم أمثال على وغيره لم يثبتوا؛ وإنما كانوا فى معمعة القتال يقتلون ويقتلون فى مواقع بعيدة عن موقف الرسول كما أن هذا لا يعنى ان إيمان النبى وحده هو العامل الوحيد فى عملية التجميع بعد الهزيمة وإن كان أقوى العوامل الهامة ، ولو تصورنا أنه نادى قوما فقدوا إيمانهم وذهبت الهزيمة بما فى نفوسهم من هيبة الرسول ومحبته فى نفس الوقت ، فماذا كان يصنع بمفرده؟ .. اللهم إلا أن ينصر بمعجزة يستجيب فيها الله وحده لدعائه على أعدائه ، ولكنه لم يلجأ إلى ذلك ... وحين طلب منه ذلك قال : إنى لم أبعث لعانا ولكن بعثت داعيا ورحمة .. اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون. ولكى تكون الغزوة كلها — إلا مالابد من عين العناية فيه — بشرية تخضع لمقاييس النصر والهزيمة ، نزل القرآن الكريم — حين قال النبى : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدماء وهو يدعوهم إلى ربهم؟ — بقوله تعالى « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم».. وفى فوضى التخاذل والتراجع والارتباك والثبات ، برز للناس مثلان يدلان على

معنى عميق؛ كان بطلاهما رجلا وامرأة : فأما الرجل فهو أنس بن النضر عم أنس بن مالك خادم رسول الله وصاحبه ومن رواة الصحاح من أحاديثه ، سمع أنس هذا - حين شاعت مقالة قتل النبي - جماعة يقولون : لو كان نبيا لما قتل.. ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم ، وسمع جماعة آخرين يقولون : ليت عبد الله بن أبي يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان، فقال على مسمع من الجماعتين ما ينبغي أن يتخذ درسا يفيد منه أصحاب المبادىء إلى آخر الدهر ، قال : ياقوم إن كان محمد قد قتل ، فإن رب محمد حي لا يموت ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟... فقاتلوا على ماقاتل عليه وموتوا على مامات عليه ... ثم قال : اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ؛ ثم استل سيفه وجعل يقاتل حتى قتل، وفي أثناء قتاله مر على أنصاري يتشحط في دمه فقال له: أشعرت أن محمداً قد قتل ؟ فقال له الأنصاري الذي يجود بنفسه وينزف دمه : «إن كان قد قتل فقد بلغ ... قاتلوا على دينكم»... أيها المؤمنون بالمبادىء المدافعون عنها اقرءوا واملئوا قلوبكم إيمانا.

وأما المرأة فهي أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية ...

ولنسمع ماقالته عن موقفها يوم أحد ولنأخذ العبرة والدروس ، ولتتعلم فتياتنا ونساؤنا من هذا المثل الذى يدل على أن المرأة المؤمنة قد تصل فى الجهاد والتضحية وتعريض حياتها للفناء فى سبيل ما تؤمن به إلى مستوى أشجع الرجال .. تقول نسيبة عن موقفها فى ذلك اليوم: خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء . فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى أصحابه والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمى عن القوس ، حتى خلصت الجراح إلى وكان الذى أصابنى قميئة أقمأه حين ولى الناس من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل يقول : دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا فاعترضت له أنا ومصعب بن عميرة وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضربنى هذه الضربة الغائرة ، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان ... فأم عمارة إذن كانت تسق الناس بسقائها ، ولكن لما رأت أنها تستطيع أن تسهم فى الحفاظ على حياة قائدها وزعيمها رسول الله تحولت إلى مقاتلة تضرب بالسيف وترمى بالنبل تطعن بالرمح .. وهذه صورة تتحدث عن نفسها .

وقبل أن نطوى الصحائف عن هذه المثل الكريمة نحب أن نعرض إلى طبيعة الرسالة الاسلامية باختصار فهذه الرسالة لم تقم أساسا على المعجزات الحسية كما قامت الرسالات السابقة ، وإنما قامت على الكلمة المشرقة: على العقل النابه: على التفكير الايجابى الحر المطلق من قيود المادة ، على أن هذه الرسالة لا تخلو من معجزات حسية تصلح كل واحدة منها أن تكون معجزة نبى يبلغ عن طريقها كلمة الله إلى الناس ؛ بيد أن هذه المعجزات الحسية لم تكن تحدث فى حياة الرسول إلا عندما لا يكون لها بديل لتحقيق الغاية التى يمده الله بالمعجزة من أجلها ، فخروجه من بين أطراف السيوف ليلة الهجرة ، وصرف الأعداء عن دخول الغار صبيحة تلك الليلة ، وعدم تمكين سراقة مما كان يريد ، وتحديث الشاة له بأنها مسمومة ، وحنين الجذع وأنينه لما تركه ورقى المنبر لأول مرة ، ونبع الماء من بين أصابعه فى يوم الحديبية ، إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصى معجزات حسية لا تقل عن قلب العصا حية وإبراء الأكمة والأبرص والنجاة من النار والفداء بذبح عظيم ... ولكن الدين نفسه لم يقم على هذه المعجزات ولم يعتمد عليها ، وإنما جعل غايته التحدى بالكلمه بالحكمة بالمعانى التى يشيب الزمان وهى لن

تزال غضة طرية تؤدى دورها فى كل مجال، يجد فيها الغالب أدب النصر وعرفان الحق للحق سبحانه ؛ ويجد فيها المغلوب عزاءه وأمله فى مستقبل الحياة ، تعطى كل معنى من معانى الحياة والفناء حقه، وتلزم العقلاء فى كل مكان وزمان بهذا الحق ، وما تزال تفعل فعلها وتؤدى دورها فى هداية البشرية إلى التى هى أقوم وستظل على ذلك ؛ والأدلة على هذا ليست أخباراً تترى قد تكون فى بعض الأحيان كاذبة : وإنما هى حقائق مسجلة فى سجلات مسجد باريس ، وفى دهاليز إدارة الأزهر بالقاهرة وفى مجاهل إفريقيا وعلى ربا جبال آسيا وفى كل مكان والحمدلله. فإذا نحن عرضنا فى غمار الحديث عن بعض هذه المعجزات التى لا تدخل فى أعمال المعركة لجلب النصر أو لدفع الهزيمة، فإنما نحاول أن نعطى الأمور حقها من الذكر والتنويه .

قال ابن إسحق حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان ،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى عن قوسه حتى سيتها، فأخذها قتادة بن النعمان فكانت عنده ، وأصيبت يومئذ عين قتادة حتى خرجت من مكانها ووقعت على وجنته فذهب بها إلى رسول

الله صلى الله عليه وسلم فأخذها بيده ووضعها فى مكانها من وجهه فكانت أصح عينيه وأحسنها وأحدّهما... وبعض هذا الكلام موجود فى الطبرى . وعن الراوى نفسه ومن حدثه سابقا يقول : كان فينا رجل أتى لا يدرى من أين هو يقال له « قزمان» وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - إذا ذكر له قزمان هذا - إنه لمن أهل النار ؛ فلما كان يوم أحد قاتل قتالا شديداً فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين ، وكان ذا بأس ، فأثبتته الجراح ، فاحتمل إلى دار بنى ظفر ، فجعل رجال من المسلمين يقولون له : والله لقد أبليت اليوم ياقزمان فأبشر ، فقال لهم بماذا أبشر فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى ولولا ذلك ما قاتلت، فلما اشتدت عليه جراحته أخرج سهما وقطع رواهشه فنزف دمه فمات منتحراً فلما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أشهد أنى رسول الله حقا ..

ومما لابد أن نعرض له فى هذا المقام التمثيل بالقتلى ، فقد حدث صالح بن كيسان كما روى ابن اسحق أن هندا بنت عتبة زوج أبى سفيان وأم ولده معاوية هى ونسوة معها وقعن يمثلن

بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بجـد عن الآذان والأنوف ، حتى اتخذت هند منها خدما وقلائد، وأعطت قلائدها وقرطتها وخدمها الذهبية هدية إلى وحشى غلام جبير ابن مطعم مكافأة له على قتله حمزة بن عبد المطلب ، ولم تكتف بذلك بل بقرت بطن حمزة وأخرجت كبده ولاكتها ، ولما لم تستطع إساغتها لفظتها ، وفعلت النساء وبعض الرجال بالقتلى من المسلمين قريباً مما فعل بحمزة عدا قصة الكبد... ولما التمس رسول الله عمه ووجده ممثلا به هكذا ساءه ذلك وقال : لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم ، ولما علم الصحابة بقول رسول الله قالوا مثل قوله وأشد .. وتلك كانت عادة العرب فى جاهليتهم ... إذا بلغ منهم الغيظ من عدوهم مبلغه انتقموا منهم بالتمثيل بالقتلى فما موقف الإسلام من هذه العادة التى تكاد تكون نزعة طبيعية يغذيها حب الانتقام المسيطر على كثير من النفوس ؟ لقد حرم الإسلام المثلة وأنزل فى التحريم قرآنا يتلى ؛ وأمر الرسول بالإحسان فى الذبحة والقتلة حتى مع الحيوان والطير :

روى عن ابن عباس أن الله عز وجل أنزل فى قول رسول الله

صلى الله عليه وسلم وقول أصحابه : «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وماصبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون » فعفا رسول الله ونهى عن المثلة وقال: أصبرو أحتسب... هذاموقف الدين الإسلامى الحنيف .. غاية فى التسامح والتسـامى برغائب النفس وميولها إلى المستوى الانسانى الـكريم ،ولـكنه ـ كما يحلو لأعدائه أن يصفوه ـ فى نظر أعدائه دين الهمجية والوحشية... ألا فليكتب التاريخ وليشهد العدول من الناس .

على أن العرب لم يكونوا يمثلون بالقتلى إلا عند الغيظ الشديد حبا للانتقام فى مواقف معينة ، مما دفع أباسفيان إلى إعلان براءته مما فعل بالقتلى ، فينـادى : إنه كان فى قتلاكم مُثُل : ويقسم : والله ما رضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت أى أن موقفه كان سلبيا فيما حدث من تمثيل بالقتلى .

كما لا ينبغى أن نترك هذه الغزوة ودون أن نأخذ منها حكما شرعيا .. فحين انتهاء المعركة حمل بعض المسلمين قتلاهم ليدفنوهم بالمدينة، فنادى منادى رسول الله: ردوا القتلى إلى مضاجعهم ليدفنوا

حيث ماتوا، فأدرك المنادى بعض القتلى فرُدُّوا إلى أحد ودفنوا فى أرض المعركة ، وسبق رجال بقتلاهم ولم يدركهم المنادى إلا بعد أن دفنوا فى «بقيع الغرقد» مدفن المدينة ، ولكثرة القتلى (٧٠ رجلا) كان الرجلان والثلاثة فى الثوب الواحد وفى القبر الواحد ، ولم يصل على أحد منهم ولم يغسلهم.. على أن فى الصلاة كلاما فى المذاهب الفقهية .. وهكذا يرجع النبى من أحد راكباً فرساً وهو وأصحابه جرحى مكلومون ، ولكنه ـ فى هذه المحنة الشديدة ـ لم ينس ربَّه فأمرهم بأن يصطفوا ، وجعلوا يحمدون الله بما هو أهله ، معترفين بأن الأمر كله لله يفعل ما يشاء ، راضين بقضائه ، فقضاء الله خير ..

ولقد سجل القرآن الكريم كثيراً من أحداث «أحد» ومواقعها فى سورة آل عمران.. من ذلك قوله تعالى: و«ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ؛ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين »..ومنها قوله تعالى : «ولقد صدقكم الله وعده إذ تحُسُّونهم بإذنه. حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتُم

من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين» ومنها قوله: «إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون» وقوله : «قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم» إلى غير ذلك مما يحكى قصة الغزوة فى أسلوب يركز على العبرة والدرس بغرض التعلم والإفادة والتربية ، لنستطيع - إذا كنا حقا مسلمين - أن نأخذ منها العبرة وألا نقع فى مثل ما وقع فيه المسلمون يوما مهما طال الزمن ومرت الأيام ؛ ولنتساءل ماذا حدث بعد أحد ؟ والجواب أن ما حدث بعد أحد مملوء بالعبر والدروس إذ كيف نتصور جيشا منتصراً يمتلىء عداوة وحقداً على عدوه المهزوم الذى لم ينج فرد منه من إصابة، كيف نتصور جيشا هذا شأنه وبلد عدوه على مرأى منه لا يحاول أى محاولة لاحتلالها والقضاء على من فيها وما فيها ؟ ، ما الذى صرف هذا

الجيش بقيادة أبى سفيان الداهية عن التوجه إلى مدينة الرسول قصبة الإسلام وعاصمته ؟ .

مع أنه كان بحساب العدد والعدّة ـقادراً على القضاء على كل شيء. أليس انصرافه بهذه الطريقةدرسا نفهم منه مدى عناية الله ببقاء هذا الدين حتى يبلغ للناس جميعا. ؟ولو قد فعلها أبوسفيان ـ لانتهى كل شيء . هذا من جانب الأعـــداء: وأما المسلمون فلما رجعوا إلى المدينة بلغهم أن المشركين نزلوا بموضع وجعلوا يعيبون على أنفسهم تركهم للمسلمين وللمدينة دون القضاءعليهما، حتى قال بعضهم : ماصنعتم شيئا ، تركتموهم يجمعون لكم ، وكان يجب أن تبيدوهم : وبلغهم أن صفوان بن أميـة هو الذى وقف يعارض عودتهم إلى المدينة : وهنا يبادر المسلمون والنبى وكلهم جراح وكلوم وكدمبالذهاب يوم الأحد إلى المكان الذى أخبروا أن المشركين نزلوا به (حمراء الأسد) ،ويشترط النبى ألا يخرج معه إلا من كان معهبالأمس فى أحد،وتدورالأحاديثفى الطريق وحين الوصول : ويقول : الذى لاينطق عن الهوىلعمر وطلحة لن ينالوا منا مثلها حتىيفتح الله علينا مكة ونستلم الركن؛ومبالغه

فى الأمن والطمأنينة يقيم جيش المسلمين فى ذلك المكان أيام الإثنين والثلاثاء والأربعاء؛وتوقد النيران ويعلم الناس ويكبت العدو المنتصر فلا يستطيع الرجوع،وفى إعتراف بما لأصحاب الأمراض والعاهات من حق فى الأسلام ينيب النبي عن نفسه فى زعامة المدينة وإمامة الصلاة أبن أم مكتوم.. وما أدراك من أبن أم مكتوم..؟ إنه الأعمى الذى نزل فيه قوله تعالى: وعبس وتولى أن جاءه الأعمى ،وما يدريك لعله يزكى أو يزكر فتنفعه الذكرى» أما بعد : فكم من الدروس فى أحد لمن يريد الانتفاع.

« حب وكرامة »

هناك حادث يعرف فى كتب السير بـ (بعث الرجيع) .. والرجيع اسم مكان فيه ماء تملكه قبيلة هذيل يقع بين مكة والطائف. ذات يوم قدم وقد من بنى لحيان من هذيل على قبيلتين من بنى الهون بن خزيمة تسميان (عضل والقارة) ورجا الوفد هاتين القبيلتين أن يسعوا إلى رسول الله بأية حيلة حتى يتمكنوا من إقناعه بإخراج عدد من أصحابه ليصيروا بعيدين عن سمع المسلمين وبصرهم ثم يفتكوا بهم ؛ وامتثل هؤلاء وذهب سبعة من القبيلتين يظهرون الإسلام لرسول الله قائلين له : إن فينا إسلاما فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى ديننا ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث معهم ستة من أصحابه، وساروا معهم حتى كانوا عند (الرجيع) فغدروا بهم وكان على رأس المسلمين عاصم بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه وفيهم خبيب بن عدى ؛ فأما عاصم فأمسك بسيفه وجعل يقاتل الخائنين حتى قتل ؛ وأما خبيب فأسر وذهب به إلى مكة ، وهناك وضعوا

فيه السلاح والحراب والرماح وهو مصلوب ثم امتحنوا حبه لرسول الله قائلين له : ننشدك الله أتحب أن محمداً مكانك الآن يقتل ، وأنت معافى فى بدنك وولدك ومالك ! .. فكان جوابه: لا والله ما أحب أن يفديني بشوكة فى قدمه ... وهنا يعجب أبو سفيان قائلا : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً .

وخبيب هذا هو الذى قال متمثلا وهو مصلوب :

ولست أبالى حين أقتل مسلما
على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع

هذا هو الحب فى أجل صوره ، وهذا هو التطبيق العملى لقوله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده » ، وقوله تعالى : «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله

وجهاد فى سبيله فتربصوا »

هذا هو الحب ... وأما الكرامة .. فقد كان عاصم بن ثابت رضى الله عنه رئيس هذا البعث وشهيده الأول قد قتل - يوم أحد - ابن امرأة يقال: لها «سلافة بنت سعد» فنذرت لئن قدرت على رأس عاصم هذا قاتل ابنها لتشربن فى قحفه الخمر ، فلما غدر الهذليون بعاصم وقاتلوه حتى قتلوه أرادوا أن يفصلوا رأسه ليبيعوه لسلافة هذه لتفى بنذرها الفاجر ، فبعث الله تعالى (الزنابير) تقرص وتفتك بكل من يقربه ، فقالوا نتركه حتى يأتى الليل فتذهب الزنابير ونأخذ الرأس لنبيعه ، وما إن غابت الشمس حتى بعث الله سيلا فى الوادى فحمل عاصما إلى حيث لا يعلم إلا الله ولم يتمكن منه المشركون.

وكان عاصم هذا قد عاهد الله حين أسلم ألا يمس مشركا ولا يدع مشركا يمسه ، فكان من كرامة الله له أن منع عنه المشركين حيا وميتا ... وهذان درسان بليغان فى معنى الإيمان واليقين وكرامة الله لمن يحبه .

غدر اليهود:

النضير وقريظة قبيلتان من اليهود لم تكونا فى داخل المدينة كبنى قينقاع وإنما كانوا فى ضواحى المدينة يقيمون فى حدائق وآطام لهم ، وكان بنو النضير يمتلكون نخيلا بجوار المدينة وكانت مساكنهم على نحو ميلين أو ثلاثة منها ، وكان النبى حين قدم المدينة قد عاهد كل من فيها وعاهد اليهود على أن يكونوا فى المدينة كأهلها وعلى أن يشتركوا مع المسلمين فى النوائب والديات .

وذات يوم تحمل المسلمون دية لرجلين من بنى عامر قتلهما عمرو بن أمية الضمرى وهو لا يعرف أن بينهما وبين رسول الله عهداً وأمانا ، وبحكم المعاهدة مع اليهود ذهب النبى إلى بنى النضير يخبرهم بما حدث ويطلب مشاركتهم فى دية القتيلين ، فقال اليهود : نفعل يا أبا القاسم ما أحببت .. ثم خلا بعضهم ببعض فقال أحدهم : أنا أصعد على البيت فأطرح عليه صخرة فأقتله ، وقال سلام بن مشكم لا تفعلوا ، والله ليخبرن بما هممتم به من السماء ..

وعلم رسول الله من جبريل بما هموا به ، فنهض سريعا كأنه يريد أن يقضى حاجته ، ثم لحق به أصحابه وذهبوا إلى المدينه ،

وأرسل اليهم محمد بن مسلمة يقول لهم بلسان رسول الله: اخرجوا من بلدى فلا تساكنونى بها ، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً ... وأراد اليهود الخروج ولكن الكفر والنفاق اسمان لمسمى واحد ، فما هو إلا أن يعلم عبد الله ابن أبى حتى يرسل إليهم من يقول لهم : لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصنكم فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم فى حصنكم فيموتون عن آخرهم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان ، فطمع زعيمهم حُيَي بن أخطب فيما قال ابن أبى رأس المنافقين ، فأرسل إلى رسول الله: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك ...

وهنا كبر رسول الله وكبر المسلمون ثم قال: حاربت يهود.. فذهب إليهم رسول الله وحاصر منازلهم خمسة عشر يوما. وهم ينتظرون المنافقين ومن وعدهم ابن أبى بأنهم سيدافعون عنهم فلم ينهض للدفاع عنهم أحد ، وأخيراً يستسلمون لشروط المسلمين ويخرجون إلى خيبر والشام .

وفى خيبر نزل أشرافهم سلام بن أبى الحقيق وكنانة بن الربيع

بن أبي الحقيق وحُيَي بن أبي أخطب ، فلما نزلوها دان لهم أهلها ...

ولسنا في حاجة إلى ذكاء كبير لنأخذ العبرة والدرس، فما يزال في العالم يهود وما يزال النفاق سائداً على سائر الأخلاق ؛ ولقد أبى اليهود أن يعيشوا بجوار العرب وفي أرضهم كما كان آباؤهم يعيشون ، فشغبوا على العرب مستندين على سادة النفاق في العالم وما إخال المنافقين اليوم سيتغيرون كثيراً عن منافقي المدينة بالأمس البعيد ، كما أن يهود اليوم لم يتغيروا عن يهود النضير وقريظة ... الغدر واللؤم والوقيعة وإثارة الحروب والمنازعات في دمائهم وطبائعهم ؛ والأمر لا يحتاج إلى أكثر من شجاعة مسلمي الصدر الأول ويقين أصحاب الرسول ، وبذلك تتمثل كل طائفة في عصورنا الحاضرة بمن كانوا في غزوة بني النضير : أمة آمنت بربها وبرسولها وبأن الموت في سبيل الله أشهى من كل حياة يشوبها أقل ألوان الذل والخضوع ، وجماعة عنصرية فاجرة غادرة نهازة لكل فرصة مهما كانت لا تمت بسبب إلى معنى الأخلاق ؛ وجماعة أخرى كان لهم عز وجاه وعظمة وآمال ملك

وسلطان ، لم يفجأهم فيها إلا هذه الأمة المؤمنة التى تقيم العدل والحق وتكره الظلم والطغيان... ولقد قلت فى إحدى الصفحات السابقة : إن التاريخ يعيد نفسه أحيانا ... وها نحن اليوم : اليهود وهم اليهود ، يستندون على تأييد جبهة النفاق والحقد واسترجاع السلطة فتعدهم بكل التأييد ، والعرب هم سلالات أولئك الذين وقفوا خمس عشرة ليلة فقط لينتهى كل شىء دون قتال .. بيد أنى أرى أن ما باليهود والمنافقين يوم النضير من الغدر والحقد لم ينقص اليوم وإنما زاد ، وأما ما كان بالمسلمين من الإيمان وحب الاستشهاد واسترخاص الحياة والشجاعة والإقدام وطاعة الله ورسوله فقد اعتراه النقص والضعف وأخشى أن يكون قد زال .

ولو قد عرف المسلمون أسلحة النصر الحقيقية فشحذوها واستخدموها عن يقين وإيمان لحققوا بها اليوم أكثر مما حققوا بها بالأمس ؛ وإن شئت فاقرأ ما حدث لبنى النضير من سورة الحشر قوله تعالى :ـ

ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل

الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ، لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ؛ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ، لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .

وهكذا تعطينا هذه الكلمات الصادقة ـ لأنها كلمات رب العالمين ـ صفات اليهود الحقيقية .

١) أنهم يعتمدون على غيرهم فى كل أدوار حياتهم فهم كلاب الصيد فى كل زمان .

٢) أنهم جبناء لا يقاتلون وجها لوجه وإنما القرى المحصنة دأبهم وطريقتهم .

ولعل المستعمرات المحصنة التى يقيها اليهود فى النقب وعلى الحدود المزعومة تؤكد لكل متشكك صدق كلام أصدق القائلين . .

٣ ـ أنهم لا يخشون الله كما يخشون الناس وبخاصة العرب والمسلمون .

ومن هنا يظهر لنا السبب الحقيقى فى الفظائع التى يفعلونها بكل من يقع فى أيديهم من العرب والمسلمين ؛ ومن هنا أيضا فإن قلوبهم متعلقة بحطام الدنيا ، وكل فرد منهم له هدف دنيوى يسعى إليه ، فإذا كانوا فى ظاهر أمرهم مجتمعين فإنهم فى حقيقة أمرهم متفرقون: « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى »..

لون من العدالة الاجتماعية فى غزوة بنى النضير

لما خرج بنو النضير من حصونهم ومزارعهم اعتبرت فى حكم الإسلام فيئاً أفاءه الله على النبى والمسلمين، يعنى فضلا وزيادة أكرم الله به المسلمين ولم يكن غنيمة تقسم أخماسا تنفيذا لقوله تعالى:

« واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه » لأن شرط التقسيم فيما يأخذه المسلمون من أعدائهم ، أن يباشر الجيش قتالا فعلا. وهذه الغزوة لم يحدث فيها قتال، ولذلك فإن الله يعلل عدم القسمة بقوله تعالى :

« وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل

ولا ركاب » ؛ وبذلك صار ماتركه بنو النضير فيئاً لاغنيمة، فماذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا المال الجديد ؟

نظر النبي إلى مجتمع المدينة المكون من المهاجرين الفقراء الذين تركوا ديارهم وأموالهم بمكة بسبب إيمانهم بدين الله ورسوله وهجرتهم إلى المدينة ، ومن الأنصار أهل الديار ومن يملكون الزرع والضرع والتجارة ، نظر إلى هذا المجتمع وقرر أن يقسم مافتح الله به عليهم على المهاجرين فقط ، حتى تتعادل كفتا الميزان بين المهاجرين والأنصار ؛ وذلك بأمر الله سبحانه معللا بقوله تعالى « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » أى إنما يعطى المهاجرون هذا المال وحدهم حتى لايكون المال والفيء متداولا بين يدى الأغنياء وهم الأنصار دون الفقراء وهم المهاجرون أى أن هنا مالا اشترك الجميع فى تحصيله فكل منهم له فيه نصيب ، وعند القسمة يعطى فريق ممن حصلوه دون فريق ؛ رعاية للعدل الاجتماعى وتقريبا للفوارق بين أغنياء المجتمع وفقرائه .

ولم تكن المسألة مسألة مهاجرين وأنصار وإنما كانت مشكلة فقراء وأغنياء بدليل أن سهل بن حنيف وأبا دجانة الأنصاريين ذكرا لرسول

الله فقرهما فأعطاهما النبي كما يعطى كلا من المهاجرين .

وهذا الصنيع «عدالة اجتماعية» « تكافل اجتماعى» « مساواة فى الفرص بين أبنـــاء المجتمع الواحد » ... « اشتراكية » . ومنه أخذ الباحثون فى مدى تلاقى مبادىء الاشتراكية مع الإسلام النص الذى يجيز لولى الأمر أن يتخذ من الإجراءات - متى سنحت الفرصة فى حدود العدل - مايقرب بين دخول أفراد المجتمع بما لا يثير الفتن والأحقاد مراعاة للعدل الاجتماعى وحتى لا يظل الغنى غنيا والفقير فقيراً ولنقرأ الآية معا :

«ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شـــديد العقاب . للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون »

ولعلنا نلاحظ تقديم وصف الفقر على وصف الهجرة فى قوله

تعالى : « للفقراء المهاجرين » وهذا واضح .

بقى أن نسأل : ماذا أحدث هذا الصنيع فى نفوس الأنصار؟ هل انشقوا وألفوا حزبا رجعيا يشغب على رسول الله والمهاجرين؟ هل ظهر فى تصرفاتهم ما يدل على ما فى قلوبهم من حقد مثلا أو حياء يخشون إظهاره وهم عن هذا الصنيع غير راضين؟ وتجيب الآية التالية للآيتين السابقتين من نفس السورة سورة الحشر عن ذلك كله :

« والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ألا فليسمع الناس وليؤمنوا أن أعدل العدل وأكفى الكفاية جاء به الإسلام منذ أربعة عشر قرنا مما يجعل المذاهب التقدمية كلها تنظر إليه باستحياء . يقول ابن اسحاق : وخلوا الأموال لرسول الله صلى عليه وسلم خاصة يضعها حيث يشاء ، فقسمها رسول الله

صلى الله عليه وسلم على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك بن خرشة وهما من الأنصار ذكرا فقراً فأعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذه دروس نتعلمها وكم فى حياة الرسول وفى غزواته من دروس وعظات ...

«غزوة ذات الرقاع»

بلغ النبي صلى عليه الله عليه وسلم أن بطنين من غطفان جهة نجد يجمعون الناس لمحاربة المسلمين فجمع أصحابه وخرج حتى إذا كان بمكان يسمى ذات الرقاع ، لقى جموعهم فخاف الناس بعضهم بعضا وقربوا من بعض ولم يحدث حرب ولا قتال .

وفى يوم ذات الرقاع صلى النبي « صلاة الخوف » التى ورد ذكرها فى سورة النساء ؛ ويروى البخارى فى صحيحه عن عبدالله ابن عمر رضى الله عنهما ، قال :

غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نجد فوازينا العدو ، فصاففناهم ، فقام رسول الله صلى عليه وسلم يصلى لنا فقامت طائفة معه وأقبلت طائفة على العدو ، وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه وسجد سجدتين ثم انصرفوا مكان الطائفة التى لم تصل فجاءوا فركع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ركعة وسجد سجدتين ثم سلم ، فقام كل واحد منهم فركع لنفسه ركعة وسجد سجدتين » ...

ولنقف هنا بعض الوقت لنتساءل : ألهذا الحد يعنى النبى بالصلاة ؟ وإذا كانت الصلاة حين الخوف من وثوب العدو واجبة الأداء على هذه الصورة وبالوضع المستطاع الذى يشعر بأى وجه بمراقبة الله ورجاء رحمته وخوف عذابه وبخاصة فى المواقف التى لا بديل فيها عن طلب النصر ، والنصر إنما يكون من الله؛ فما موقف المسلمين منها فى وقت الدعة والأمن والهدوء ؟. إننى أنظر من هذه الزاوية فآخذ العبرة وأتعلم الدروس ، إن المسلمين أصبحوا فى بعض المواقف يخشون أو يستحيون أن يقوموا للصلاة ، أصبحت الصلاة فى نظر بعضهم شيئا لا ينبغى إعلانه ولا الحرص على فعله ، مع أنها فى حقيقة أمرها سهلة الأداء ، مدعاة للطهارة والنظافة ، وسيلة لذكر الله والقرب منه ومراقبته فى كل عمل يقوم به المصلى بين الصلاتين ، مكفرة للذنوب التى لا يخلو منها فى هذه العصور إنسان ، ولو نظرنا إلى فرضية الصلاة وعرفنا أنها وجبت ليلة الإسراء فى أرفع مكان ، وفلسفنا هذا المعنى إلى أنها الهدية التى رجع بها النبى إلى المسلمين فكأن الله ـ وقد قرب محمداً بجسده وروحه إلى أقدس مكان ـ أوجب الصلاة

على أمته لتكون بديلا عن الإسراء بها حيث يتم بوساطتها اللقاء الإلهى فى اليوم خمس مرات .

وإنك لتسأل من تخالطهم من الذين لا يبدو عليهم أداء الصلاة ، فيقولون لك : إننا نصلى فى البيت ويؤكدون لك أنهم لا ينامون حتى يؤدوا ما عليهم من صلاة ، وتتعمق معهم فتجدهم بين حاج لبيت الله أكثر من مرة ، وبين ناشىء فى بيت رجل عالم ، بل وبين متعلم فى أحضان معاهد الدين، ونسى هؤلاء جميعا قوله : إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا .. وقوله : أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ..وقوله: وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات..

فماذا يضير هؤلاء جميعا إذا خرجوا من بيوتهم متوضئين حراصا، على وضوئهم ، حتى إذا أذن للظهر أدوا صلاته فى دقائق على أى مكان طاهر فى مجالات عملهم ، ثم إذا عادوا إلى منازلهم واستراحوا قاموا للعصر وصلوه، وبوضوئه يصلون المغرب وقد

يدركون العشاء ، وبذلك يكونون قدوة لمرءوسيهم ، ويكون لهم أجرهم وأجر من اقتدى بهم ، فإن كثيرين من متوسطى الموظفين وصغارهم يخشون أو يستحيون أن يصلوا فى حضرة رؤسائهم فإذا صلى هؤلاء انحلت عقدة الخوف وخفت درجة الحياء مما لا حياء فيه ،وقد يكون هؤلاء متوضئين ولا يصلون.

وقد حدث ذات مساء أن كنت أنا وبعض العلماء فى نادى طلبة الجامعة نسمع محاضرة عن فلسطين وبدأت المحاضرة قبيل المغرب واستمرت وكانت المعلومات القيمة التى نستمع إليها لا تسمح بأن نتركها ونخرج للصلاة ، ولكن فريضة المغرب تقف أمامنا وتسائلنا عن ضياعها وهنا طلبنا أنا وإخوانى العلماء وقف المحاضرة لنؤدى الصلاة لأننا فى حرج : لا نرضى أن نترك المحاضرة ولا أن نترك الصلاة ، فأوقفت المحاضرة خمس عشرة دقيقة ، وليست هنا العبرة ، ولكن العبرة أننى خرجت على التجيل أصلى بصف واحد من الناس ، فما إن انتهيت من الصلاة والتفت ورائى حتى وجدت حوالى أربعين فرداً بينهم ست نساء اختمرن وصلين فى آخر الصفوف ...

وإذن كان هــؤلاء كلهـم متوضئين ، وكانوا يخشون أو يستحيون ، ولو أن الذين على رأس الحفل قاموا للصلاة لانحلت العقدة وخف الحياء ...

ومن هــذه الواقعة أرجو أن تراعى أوقات الصـلاة فى مواعيد عقد الندوات والمحاضرات والاحتفالات، حتى يرتفع الحرج عن الحاضرين والحاضرات وحتى يكون هـذا تقليـداً تراعيه كل الجهـات ، وقد نفذ هذا فعلا فى جمعية الشبان المسلمين فى ندوة الخميس الدينية التى تعقد كل خميس بين صلاتى المغرب والعشاء، واتبع ذلك فى سائر الندوات والمحاضرات ...

وفى هذه الغزوة وقعت قصة دعثور ذلك الرجل الذى مر على النبى وهو نائم تحت سمرة ، فأخرج سيف النبى من جرابه ثم أيقظه فقال له ، يا محمد ، من يمنعك منى ؟ فقال له : الله.. فوقع السيف من يد الرجل وأخذه الرسول وعفـا عنه وقد كان يريد قتله ، ولعل فى هذا العفو درسا يجب أن يلقنه الطغاة من الناس ليعلموا أن لذة العفو إنما تـكون عند المقدرة .

(غزوة بنى المصطلق ـ المريسيع ـ)

أبلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن الحارث بن أبى ضرار الخزاعى جمع الجموع لمحاربة النبى صلى الله عليه وسلم ، فخرج للقائه ، وخرج معه فى هذه الغزوة كثير من الذين يعلم رسول الله أنهم منافقون ؛ وانتصر المسلمون ولم يقتل منهم إلا رجل واحد وهو هشام بن صبابة الذى قتل خطأ بيد رجل من الأنصار يظنه من أفراد العدو، واستأسر الأعداء رجالا ونساء وذرية ، ووقعت جويرية بنت الحارث سيد قومه فى قسم ثابت بن قيس ، فعرضت على ثابت هذا أن تفدى نفسها من أسره بفدية مال فقبل ، فدخلت على رسول الله تريد العون المادى فقالت: أنا جويرية بنت الحارث ثم ذكرت حاجتها ، فعرض عليها النبى صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها ويؤدى عنها ما تريد أداءه لثابت بن قيس فقبلت فرحة مغتبطة ، فلما بلغ الناس أن رسول الله تزوجها أطلقوا من بأيديهم من أسرى بنى المصطلق فكانت بذلك أكثر الناس بركة على قومها ، وبسبب هذا الزواج هدى الله قومها للإسلام حتى أبوها الحارث أعان إسلامه ..

ومن هنا نأخذ كلّ ما يقال فى كتب أعداء الإسلام وعلى ألسنتهم فى شأن زواج النبى صلى الله عليه وسلم بالبحث والمراجعة ورد كل زواج إلى أسبابه ودواعيه ، قبل أن تأخذنا عباراتهم عن الشهوة والرغبة فى أنوثة النساء إلى واد من الفتنة سحيق .

ولنضع أمام القارىء فى هذا المجال الحقائق الآتية :

١ ـ أن النبى عاش شبابه كله وجزءاً من شيخوخته مع زوجة واحدة تكبره بخمس عشرة سنة كانت متزوجة قبله رجلين ولها من كل منهما أولاد ، ولم تكن على قدر كبير من الجمال .

٢ ـ أنها حين ماتت وكانت سنه صلى الله عليه وسلم خمسين سنة لم يقبل على الزواج حتى عليه العارضون امرأة دميمة كبيرة تخدمه وترضى منه بشرف الزوجية دون نظر إلى شىء آخر ، فقبل وتزوج « سودة بنت زمعة » التى كانت زوجا لأحد مهاجرى الحبشة ثم مات عنها وليس لها منه أولاد .

٣ ـ أن كل زواج تم بعد ذلك كان لأسباب إنسانية تقتضيها الظروف التى كان يعيش فيها المسلمون فى المدينة بعد الهجرة وتتابع الحروب والغزوات ، وكانت أول زوجة للنبى بعد سودة

هي عائشة الفتاة الصغيرة وكان زواجها بالمدينة ، والمعلوم أن الهجرة تمت وسن النبي ثلاث وخمسون سنة وكان سببه إحكام الترابط بين النبي والصديق رضي الله عنه ، وهكذا قصة زواج حفصة بنت عمر ، وأم سلمة ، وزينب ، وقد علمنا قصة زواج جويرية فإما وفاء لصاحب ، أو إنقاذ لسمعة أسرة ، أو تشريع لحكم من أحكام الله في الدين ، إلى غير ذلك مما لا يخلو من حكمة جليلة ، ولكن أعداء الإسلام يلبسون كل شيء بغير لباسه ، ليلبسوا على الناس أمور دينهم ، وليضعوا ما يثير العاطفة دائماً أمام ما ينير العقل ويهدي إلى الحق المستقيم ...

غزوة الخندق ـ الأحزاب ـ

سواء كانت غزوة الخندق فى السنة الخامسة بعد أحد بعامين اثنين كما يقول أكثر المؤرخين أم كانت فى السنة الرابعة كما يقول ابن خلدون مستشهداً بما رواه عن ابن عمر رضى الله عنهما من قوله : « ردنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة ثم أجازنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة » فإن المقصود أخذ العبرة من أحداثها.

فمما لاخلاف فيه أن المشركين واليهود وغطفان وبنى مرة الخ تحزبوا وتجمعوا للإجهاز على الإسلام نهائيا ، وفى كل موقف صعب وفى كل موقعة شرسة مخططة نجد لليهود اليد الطولى رغبة فى الانتقام من المسلمين وفى القضاء على الدين الجديد الذى اجتذب العرب وبعض اليهود وأصبح ببرامجه ومبادئه فى السياسة والاقتصاد وعبادة الله خطراً يخشى منه على مركز اليهود المالى والدينى على السواء .

فزعماء بنى النضير بعد ذهابهم إلى خيبر لم ينسوا ديارهم وحصونهم بالمدينة بل راحوا يضربون فى الأرض شمالا وجنوبا

وشرقا وغربا يحزّبون الأحزاب ويذكون نار الحقد والثأر فى محيط قريش وغيرها من قبائل العرب حتى انتهوا بزعامة سلام بن أبى الحقيق وحُيَىّ بن أخطب إلى عقد الاتفاقات بين المشركين وبين اليهود لقتال المسلمين فى قلب المدينة ذاتها .

وأحب أن أضع أمام القارىء لونا من ألوان المناقشة التى حدثت بين اليهود أهل الكتاب والمشركين عبدة الأصنام، لما ارتاب المشركون من فعل اليهود: قال المشركون لليهود : أى الدينين خير ؟ أديننا أم دين محمد ؟ فكان جواب علماء اليهود ـ أهل الكتاب ـ : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه ..

ولقد جاز هذا الكذب والنفاق على المشركين ففرحوا بشهادة أهل الكتاب الأول ـ كما كانوا يسمونهم ـ ضد الإسلام مع أنهم يعبدون الله الواحد الذى يعبده المسلمون ، ولكنه الحقد الأعمى والرغبة القاتلة فى الانتقام مما أدى إلى أسف الدكتور ولفنسون اليهودى فى كتابه تاريخ اليهود ص١٤٢ :

« والذى يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التى جرت بين نفر من اليهود وبين

بني قريش الوثنيين ، حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية » ...

ألا فما أشبه الليلة بالبارحة .. إنه الكراهية المتأصلة والعداء المستحكم الذى لا علاج له إلا بالفصل بين العرب واليهود بحيث لاتكون بينهما مصالح مشتركة ولا حدود مشتركة حتى يستريح العالم ويهدأ ، وإلى أن يتم ذلك فلن تخلو فترة من أحداث بين العرب واليهود ، ولن يفيد حل سلمى ولا حل عسكرى غير حاسم بحيث يمكن معه إقامة اليهود مواطنين فى دولة لايكون لهم فيها حكم ولا سلطان ، وسيرى من يعيش هذه الحقيقة وإن طال الزمان . هذه عبرة مكررة لايمل هذا القلم من الكتابة فيها لأنها حقيقة الحياة فى هذا الجزء من العالم الحديث .

أما سلمان « والخندق » وهو كلمة فارسية معناها الحفرة العميقة الواسعة التى لاتسمح بتخطيها من جهة الأعداء ، وأما الصخرة (الكُدْيَة) وإعمال النبى معوله فى تفتيتها على ثلاث مرات فى كل مرة تضىء الأرض من إحدى الجهات الثلاث (الشام - فارس - اليمن) فهذان حادثان معروفان لأكثر القارئين ، ولكنى

أحب أن أعرض فى كلمة موجزة مافاتنى أن أنبه اليه فيما سبق ـ فيما أظن ـ وهو أن القبائل الكبرى اليهودية التى وفد النبى إلى المدينة وهم فيها كانت قبـــائل « بنى قينقاع ، بنى النضير ، بنى قريظة » وقد قامت غزوة الخندق وليس بالمدينة وضواحيها منهم إلا بنو قريظة .

وكان كعب بن أسد القرظى قد وادع النبى وعاهده ، ودخل النبى المعركة وهو واضع هذا العهد موضعه من الوفـاء . ولكن حيى بن أخطب فتنه عن عهده واستماله إلى أعداء الرسول فمال وصار مع قومه فى صفوف الأحزاب ؛ مما كان له أبلغ الأثر فى كرب المسلمين وشدة الأمر عليهم من أمامهم ومن خلفهم . ومما أدى إلى استئصال شأفتهم بعد انتهاء غزوة الخـــندق ليستريح المسلمون من كيد اليهود لهم بالمدينـة ، وإلى أن يخلو الجو للمسلمين وحدهم ، وذلك من تدبير الله حتى لاتكون راحة إلا بعد جهـــاد ، وحتى يعرف المسلمون أن حياتهم مقرونة بالكفاح فإن هم فتروا وألقوا أحمالهم على غيرهم ذلوا وهانوا

وتعلقوا بالدنيا وأحبوا الحياة، ومتى أحب الأحياء الحياة كرهوا الجهاد واستمرءوا السلامة ولو على بساط الذل.

ولندخل فى أحداث المعركة لنأخذ منها العبرة والدروس :-

اجتمع المشركون من كل جانب وكانوا قد اتفقوا مع بنى قريظة لينقضوا عهد رسول الله : ولم يبق فى صفوف المسلمين إلا عدد قليل بالنسبة إلى الأعداء، وكان الخندق قد حفر، واصطف الأعداء على حافة الخندق : وجوههم للمدينة وظهورهم للصحراء، ونصبوا بيوتهم وعسكروا، وبلغ النبى نقض اليهود للعهد فكان الأمر كما وصفه الله « زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر» وفى خمس عشرة ليلة (وهى مدة الحصار) حدثت مراماة بين الجانبين وكانت خسائر المسلمين ستة أشخاص، وخسائر المشركين ثلاثة، وانتهت المعركة برحيل المشركين وكانوا بقيادة أبى سفيان.

وتصور الآيات الآتية من سورة الأحزاب المعركة مع إيضاح تأييد الله ونصره، « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيرا، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا »

إلى أن يقول : « ولمـــا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، ومازادهم إلا إيمانا وتسليما ۞ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، ومـا بدلوا تبديلا ۞ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنـــافقين ان شاء أو يتوب عليهم ، إن الله كان غفوراً رحيما ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً » .

ـ الوسائل الانسانية والرعاية الالهية ـ

كدرس عام نستطيع الانتفاع به من الغزوات كلها : « علينا أن نعمل جهدنا فى سبيل تحقيق أغراضنا الحقة ،ثم نطلب النصر والتأييد من الله » هذا الدرس قدر مشترك بين الغزوات كلها بل بين الأعمال التى يناط بنا جماعياً أو فردياً تحقيقها.

فالإنسان لم يعط قابلية التعلم والقدرة على التفكير عبثا ، وإنما ليستعمل كل القدرات الممنوحة له فيما تصلح له ، فالمسلمون هنا علموا بأن حييا وزملاءه قد ضربوا فى كل أرض العرب يجمعون لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اجتمع على حربه

عدد لم يحدث مثيله فى معركة من قبل ؛ فاستعملوا العلم والتجربة فحفروا الخندق بينهم وبين الأعداء المشركين، ولما علموا بنقض اليهود عهدهم ، ولما انفض المنافقون ، ولم يبق منهم إلا المخلصون لم يهنوا ولم يستسلموا ، وإنما وقفوا يدافعون عن وطنهم وعن مبادئهم وعن شرفهم وكرامتهم ، وكانوا متفرغين للمعركة لم يشغلهم عنها شاغل ، حتى إن الصلاة قد فاتتهم فى بعض الأيام الخمسة عشر ، وصلاها النبي قضاء بعد .

وإلى هنا فقد أدوا واجبهم الدفاعى كأحسن ما يؤدى ، ولقد أمدهم الله بسببين للنصر : بشرى لم يدبروه ، وطبيعى من عند الله لم يصنعوا له ...

فأما الأول فقد هدى الله نعيم بن مسعود للإيمان ، وتمكن من مقابلة النبى فعرض عليه إسلامه الذى لم يعلم به أحد من قومه ، وطلب أن يكلف أى عمل يسهم به فى النصر ، فجاءه الأمر : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة » ، وصدع نعيم بالأمر وتصرف من ذات نفسه حتى أوقع بين اليهود والمشركين ، وشكك كلا منهما فى

فى وفـــاء الآخر بما تعاهدا عليه ، وتمكن من جعل اليهـــود ينفضون أيديهم من العهد بعد أن طلبوا من المشركين رهـائن فأبى المشركون وصدقوا ماقاله لهم نعيم .

وبذلك تفـرق أمرهم بعد أن كان مجتمعـا ، وصارت كل قبيلة تفكر لنفسها وتتساءل : مامقامنا هنا بعد غـــدر يهود ورجوعهم عن العهد ، ثم ترحل ؛ والسبب الثانى الإلهى ، هو المذكور فى قوله تعـالى « إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحـا وجنودا لم تروها » اشتدت الريح حتى هدمت بناءهم وكفأت قدورهم وشعر كل منهم أن مكانه ليس بدار مقام.

يقول حذيفة الذى دخل متخفيا فى صفوفهم : « دخلت فى القوم والريح وجنود الله تفعـل بهم ماتفعل : لاتقر لهم قـدراً ولا ناراً ولا بناء» وهكذا أيها المسلم عليك ألا تترك ثغرة ينفذ منها عدوك مع شدة الحذر وحسن التدبير بما وهبك الله من علم وعقل ، ثم توكل على الله يجعل لك مع العسر يسرا ومن الضيق فرجا ... رحل الجيش كلـه ، ودخل حيي بن أخطب فى حصن سيد قريظة كعب بن أسد ،وبقى الأمر بين المسلمين من جانب، وبين اليهود من جانب آخر .

ولقد علم الإسلام أبناءه أن المؤمن الحذر الفطن لاينبغى له أن يلدغ من جحر واحد مرتين، ولقد ثبت أن القرظيين لاعهد لهم ولا وفاء ، فكيف عاملهم النبى؟ لقد كانت هذه القبيلة خاتمة اليهود فى يثرب مدينة الرسول ونفذ فيهم وفى حيى بن أخطب رأس الفتنة كلها حكم الله وحكم رسوله وهو قتل مقاتلتهم وأخذ أموالهم وسبى نسائهم وذرياتهم ...

ولقد جاء فى سوره الأحزاب عقب الآيات التى ذكرناها فى غزوة الخندق قوله تعالى :ـ

«وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب ؛ فريقا تقتلون وتأسرون فريقا، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديرا » ... وصدق الله العظيم : إن الله لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ..

أحداث فى الغزوة : لما أيقن اليهود حين حاصرهم المسلمون أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يقضى الله بينه وبينهم، قال لهم زعيمهم كعب بن أسد:

يا معشر اليهود ، إنه قد نزل بكم من الأمر ماترون ، وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم . قالوا : وما هن ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد كان تبين لكم أنه لنبى مرسل ، وأنه للذى كنتم تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم ... قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره قال : فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف، فإن نهلك نهلك وليس وراءنا شىء نخشى عليه، وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء ... قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟..قال: فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون المسلمون قد أمنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة ... قالوا نفسد سبتنا ونحدث فيه ، وقد علمت أن من أحدث فيه أصابه من المسخ مالم يخف عليك .

نأخذ من هذه الرواية ، أن اليهود كانوا يعلمون أن محمدا رسول الله وكثير منهم أسلموا عن رضا وطواعية ، ولكن هناك فرق بين العلم والانقياد ، فكثيرون يعلمون عن رجل أو شىء أو دين أنه خير ، ولكن الحقدوالعناد يحول بين العلم وثمرته فإن ثمرة العلم والإيقان الانقياد لما يقتضيانه .

وقصية العقيدة وأثرهـا فى السلوك ما تزال شغل المربين الشـــاغل .

كيف يصلون إلى أن يعمل ذو العقيدة ما يقتضيه الإيمان بهـا ، بحيث يكون سلوكه تطبيقا عمليا لعقيدته ؟ فالمسلم الذى يعلم أن الـكذب محرم ثم يكذب مثلا ، والاشتراكى الذى يتغنى بالمبادىء الاشتراكية ثم يسلك سلوك البخلاء الأشحاء مع من يعيش معه فى مجتمعه ، كل هؤلاء مرضى الانفصال بين العقيدة والسلوك . .

كما نأخذ أنهم يعرفون تماما أن طائفة منهم اعتدت بالصيد يوم السبت فمسخوا قردة خاسئين ، ولـكن يهود اليوم يتعالون على المسخ الذى حدث ، ويحـاولون الانتقام من البشرية تشفيا وإثلاج صدر .

ولقد حدث أن اليهود طلبوا ـ أثناء الحصار ـ من النبى أن يرسل إليهم أبا لبابة يناقشونه فى مصيرهم ، وكان محظوراً عليه أن يعلمهم بحكم الله فيهم ، ولـكنه تحت التأثر ببكائهم وتوسلهم أشار إلى عنقه ومر بإصبعه يعنى (الذبح) .. ولـكنه ما إن فعل ذلك حتى أيقن

أنه خان الله ورسوله ، فترك بنى قريظة وترك المسلمين وذهب إلى عمود من أعمدة المسجد النبوى وربط نفسه فيه وعزم على ألا يحل رباطه من العمود حتى يتوب الله عليه أو يقضى الرسول فيه بقضائه الذى يرضاه ، وتعرف السارية التى ارتبط بها باسم « سارية أو اسطوانة أبى لبابة أو أسطوانة التوبة » وموضعها الآن غربى الحجرة الشريفة عندما يعرف فى المقصورة باسم شباك التوبة ، وما يزال الناس يلتزمون الأسطوانة ويعرضون توبتهم ويرجون القبول

والعبرة فى هذه الحادثة ، أن أبا لبابة حين رق قلبه لهم فنسى وأشار إلى حلقه اعتبر هذا جريمة كبرى وعمل ماعمل حتى أنزل الله توبته عليه وأخبرته بها أم سلمة رضى الله عنها ، فكيف نفعل الذنوب الثقال ثم لانشعر بألم نفسى أو وخز ضمير ؟ .

بل إن الكثيرين منا يتباهون بذنوبهم ، ويذكرونها بين زملائهم فى زهو وافتخار والكثيرين أيضا إذا لم يذكروا ذنوبا فعلوها، اختلقوا لأنفسهم ذنوبا وعرضوها على المجتمع لأنهم يرون الاستقامة ضربا من التأخر الذى لايليق بمن يعيش فى القرن.

مع أن إعلان الذنب والمجاهرة بالمعصية سبب فى عدم عفو الله عن المجاهدين ، ومن حقنا فى هذا المقام أن نذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجانة أن يعمل الرجل عملا بالليل يستره الله عليه ثم يصبح يكشف ستر الله عنه».. لقد اختلف الناس عن أولئك الناس ، وغيروا الطريق والسبيل التى كانت من أسباب رعاية الله لهم ونصره وتأييده ، فغير الله ما بهم وصاروا فى العالم كسقط المتاع ، لا خطر ولا أثر وفى الحق إنه ليخطر على بالى كثيرا هذا التساءل :

لماذا لا نؤلف مؤتمراً كبيرا تتعدد فيه اللجان المتخصصة التى تبحث فى حياة المسلمين فى عصر النبوة عاداتهم ومعاملاتهم مع بعضهم ومع غيرهم ومع الله فى الحرب والسلم فى الإقامة والسفر الخ ثم تحاول كل لجنة أن تجد العائق الذى يعوق تطبيق ما كان هناك فى حياتنا المعاصرة...وبذلك نشخص الداء، ونعرف مواضع الألم، ثم نقارن بين ما نرى أنه لابد منه لحياتنا فى هذا العصر وبين ما كان فى عصر النبوة ونصل إلى تحديد مدى التضحية لو قبلنا أحد الأمرين ورفضنا الآخر ، ثم نعرض هذه الدراسة كلها فى صدق نية وفى قوة رغبة فى أن نصل إلى علاج ناجع على « المجلس الاجتماعى

المتخصص ، الذى سيقوم تطبيقا لبرنامج ٣٠ مارس الذى نادى بإقامة مجالس متخصصة تباشر البحث فى الاقتصاد وفى السياسة وفى العلوم .

ولقد ناديت فى إحدى محاضراتى التى كان يحضرها بعض المسئولين بأننا نرغب فى عرض هذه القضية : « قضية التوفيق بين الآداب الدينية والنزعات المدنيـة » على المجلس الاجتماعى المقترح تأليفه ، حتى يصل بنا إلى علاج يوفق بين الأمرين دون مساس بالدين ودون جمود بالحياة حتى لا يقع الناس فى الحرج الذى يقعون فيه ، وأرجو أن يتخـــذ هذا النداء صورة جدية عند تأليف المجلس المذكور إن شاء الله .

الحديبيـــة

الحديبية اسم بئر أو مكان أو قرية على تسعة أميال من مكة؛ وكان سببها أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه أنه دخل البيت هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين .. .فاشتد شوقه إلى البيت الحرام وإلى هواء مكة وكل شيء فيها ؛وأدرك أنه لو ذهب فى لأمة الحرب ومعداته لهاج ذلك العرب جميعهم وأثارهم ، مما يكون سببا فى قتال هو لايريده لأنه يقدس حرمة البيت الحرام ،ولأنه ينادى بالسلام فلا ينبغى له أن يبدأ حربا؛ فعزم على أن يذهب معتمـــرا زائرا للبيت لايحمل إلا سلاح المسافر لاسلاح المحارب سائقا هديه هو وأصحابه حتى لايدع فى نفس من يراه أى شك فى حسن النية والرغبة الخالصة فى الزيارة لإطفاء الشوق الذى يملأ النفس . وكان عدد أصحابه كما يروى البخارى أربع عشرة مائة (١٤٠٠) ، وإن كان أصحاب السير يرددون العدد بين ١٤٠٠، ١٦٠٠ ؛أما مارواه ابن اسحاق أنه ساق ٧٠ بدنة هديا عن ٧٠٠ شخص لكل عشرة بدنة هديا ، فلعل ذلك كان فى أول النفر قبل أن ينضم إليهم من دعاهم من العرب والأعراب .

وسار الناس حتى إذا كانوا بالحديبيـــة أمرهم رسول الله بالنزول ، ولما اطمأنوا طلبوا الماء فعـز عليهم ، وكانت هنـاك بئر لايرى من مائها مايملأ إبريقا أو إناء ، فوضع رسول الله يده فى الماء ودعا ربه ، ثم قال دعوها ساعة ، فترك الناس البئر بعض الوقت ثم عادوا فوجدوها تفور بالماء، فشربوا وتطهروا وسقوا ركابهم حتى ارتحلوا، ولمـا علمت قريش بمقدمه ومنزله تحولت بخيلها ونعمها إلى الحديبية اتقف فى وجهه ، وتحـالفوا الا يدخلها عليهم أبدا ، ووقـع المسلمون فى حرج : إذا قاتلوا كانوا مقاتلين فى الحرم وهذا مالم يريدوه، وإذا انصرفوا هكذا كما جاءوا كانوا فى نظر أنفسهم وفى نظر الناس مهزومين ، فكان فضل الله عليهم أن هداهم لقبول الصلح الذى عرضته قريش على لسان السياسى الخطيب سهيل بن عمرو .

وكان العنصر الأساسى فى الموضوع كله بالنسبة إلى قريش ألا يدخل المسلمون مكة هذا العام أبـدا ، وبالنسبة إلى المسلمين أن يتمـكنوا من دخول مـكة دون قتـال ولو فى عام قـابل ؛ ولـكن هؤلاء وهؤلاء أحاطوا الهدف الأساسى بشروط كونت

عناصر ما يسمى بـ«صلح الحديبية» وكانت شروط الصلح كما يأتى:

١- مدة الصلح ووضع الحرب عن الناس عشر سنين .

٢- من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه يجب على المسلمين أن يردوه إلى أهله ، ومن جاء قريشا من المسلمين يريد ترك محمد ودينه لا تلزم قريش برده إلى المسلمين .

٣- أن يرجع المسلمون عامهم هذا (العام السادس الهجرى) فلا يدخلوا مكة ولا يزوروا البيت ، على أن يأتوا فى العام القابل فيدخلوا مكة والبيت ويقيموا ثلاثة أيام لا يحملون فيها إلا سلاح الراكب المسافر (السيوف فى القرب)...

٤- أن لقبائل العرب الحرية فى أن تدخل أى منها فى عقد قريش أو فى عقد رسول الله ...

وإن أى إنسان منصف (لو كان الأمر أمر بشر) يرى فى هذه الشروط ضغطا شديداً على المسلمين ، ولذلك بكوا حين قبل الرسول هذه الشروط ، وكان الجواب: «إننى عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى»

وهكذا رجع المسلمون فى عامهم هذا ليأتوا فى العام المقبل

زائرين متعمرين لايتعرض لهم أحد ؛...

دروس في الحادث والصلح جميعا

أما ما يؤخذ من دروس من الحـــادث نفسه ؛ فأثر حب الوطن فى سلوك الإنسان ،حتى وإن طابت له الحياة فى مهجره، مما يجعله يسعى فى سبيل زيارته متى سنحت له الفرصة ، على أى وجه من الوجوه،فما هو إلا أن يرى النبى فى منامه أنه وأصحابه يطوفون بالبيت ويدخلون مكة محلقين مقصرين،حتى يشرع فعلا فى تحويل رؤياه إلى حقيقة واقعة، وذلك وإن كان مطلبا دينيا من حيث إن رؤيا الأنبياء حق ، ولكن وراء سرعة السعى فى تحقيقه ذلك الحنين الطبيعى فى نفس الإنسان إلى وطنـه الذى درج فيه، كذلك فإن مما نفيده من دروس اجتماعية دينية ، أن الرؤيا الصادقـــة والدعاء المستجاب لايلزم لهما أن يتحققا فى الوقت الذى يتمناه الداعى أو الـرائى ، فإن ذلك يتوقف على علم الله وتدبيره، مما قد يظنه الإنسان ردا لدعائه ورفضا لرؤياه، والله وحده هو الذى يعلم الوقت الجامع للمصالح لتتحقق فيه الرؤيا أو يستجاب الدعاء؛وعلينا أن نتعلم هذ الدرس مما حدث

فى الحديبية ؛ حيث كان الإنسان متمثلا فى عمــــر وغيره من الصحابة رضى الله عنهم يعتقدون أن فى رجـوع المسلمين دون دخول مـــكة كسرا لشوكتهم ومساسا بعزتهم وعزة دينهم : بينما تدبير الله وعلمه يجعل النبى البشر المصطفى يرضى بالرجوع محتقا به أضعافا مضاعفة من عـــزة المسلمين وعزة الدين ، ولكن... فى الوقت المناسب .

ويعطينا هذا الدرس أيضا ما نعلمه عن الزمن الطويل الذى وقع بين دعاء إبراهيم عليه السلام أن يبعث الله فى أبناء إسماعيل رسولا يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، وبين تحقيق الدعاء وإجابته على أرض الواقع ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم فى العرب وفى الناس أجمعين ، ولو كان هـذا الدعاء قد أجيب وتحقق قبل الوقت الذى تحقق فيه ، لدرست رسالته ومضت مع ما مضى من رسالات الغابرين .

فلما رأى الرسول رؤياه وبدأ فى تحقيقها كان فى علم الله أن تأجيل تحقيقها عاما بالطريقة التى تم بها التأجيل أعظم وأكرم للدين والمؤمنين به جميعا .

ومما يجب أن نتعلمه أن العدو لا يرده عن عدوانه ظهور عدوه

بمظهر المسالمة ، وإنما يجب أن نتعلم أنه لا يفل الحديد إلا الحديد ولا يكسر الشوكة إلا شوكة أقوى منها ، تلك طبيعة الحياة خلق الله الناس عليها « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ».

فرغم ما أفرغ فيه المسلمون جهـــدهم من سوق الهدى وعدم حمل شيء من أسلحة الحرب وظهورهم فى سيمياء المعتمرين الزائرين، لم تسمح لهم قريش بدخول مكة اتفاقا ورضا ، يقول رسول الله - حين بلغه أن قريشا خرجت ومعها العوذ المطافيل ، يعنى الجمال ومعها أطفالها علامة على نية الإقامة الطويلة خارج مكة - : « ياويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ... فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ».

أما ما نتعلمه من الصلح وشروطه فمنه أن شأن المؤمن بالله ورسوله إذا وقع فى مشكلة أمر الله فيها لا يحقق رغبة نفسه ، أن ينفذ أمر ربه معتقدا أن فى ذلك المصلحة والخير وإن بدا على غير رغبته فى ظاهر الأمر .

إذ حينما جلس الطرفان للصلح ، وقال النبي لعلى بن أبي طالب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» قال سهيل بن عمرو : لا أعرف هـــذا ولكن : « أكتب باسمك اللهم » فكتبها كما قال سهيل، والمسلمون يتميزون غيظا ، وحدث مثل ذلك فى وصف نفسه بـ «رسول الله» واعتراض سهيل عليه واستجابة الرسول لطلبه أن يكتب «محمد بن عبد الله» ثم ما كان من شروط الصلح الذى اعتبره المسلمون جائرا بهم ؛ لأنه يردهم من غير زيارة البيت هذا العام وهم يريدون الزيارة، ولأنه يفرض على المسلمين رد من يذهب إلى المدينة مسلما ، ولا يفرض على المشركين رد من يذهب إلى مكة مرتدا ... مما جعل عمر يناقش أبا بكر رضى الله عنهما ؛ مرة ويناقش الرسول مرة أخرى : أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ وحين يجاب بالإيجاب يقول: فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ ؟ فيقول الرسول فى ثقة المؤمن أكمل الإيمان: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعنى ... وهذا الجواب يعطينا الدرس والعبرة : فكأن رسول الله لا يجـــد جوابا مقنعـا لعمر فى لموضوع نفسه فيضمه إلى الوضع الذى يجد نفسه فيه ؛ رغبة نفس فى ناحية ، وأمر الله فى ناحية ... وليس لنا إلا أن تنفذ

أمر الله معتقدين الخير كله والنفع كله بما توحى به جملة « لن يضيعنى » ، فكل الظواهر تدل على أن شروط الصلح فى غير صالح المسلمين بادى الرأى ، ولكن هنا نبيا ينفذ أمر ربه .

وشبيه بهذا الموقف ، موقف إبراهيم مع زوجه هاجر وابنه إسماعيل حينما أراد السفر إلى فلسطين وحده وتركهما « المرأة والطفل » وحدهما فى صحراء لا ماء فيها ولا ناس ، فى مكان البيت ، فتعلقت بثوبه فأدار وجهه حنانا وعطفا ، : قالت له كيف تتركنا هنا فى هذا المكان الموحش ؟ ولما سكت قالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال إبراهيم : نعم وهناك قالت الزوج المؤمنة التى عاشت فى كنف النبوة فترة قصيرة : إذن لن يضيعنا .. ثم تركت ثوبه ثوب الإنسان وتعلقت برجاء الله مؤنس الموحش وبارىء النسم .

وأظنك أيها القارىء تعلم أن الله لم يضيع محمدا حين نفذ أمر ربه فى قبول شروط صلح الحديبيه ولم يضيع هاجر وإسماعيل فى بطحاء مكة ، وإنما مكن لمحمد أن تكون أمته خير أمة أخرجت للناس تحمل دين الله إلى أهل الأرض إلى يوم الدين ، وجعل من سلالة إسماعيل سدنة بيته وأهل كرامته ومن مكة حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم .

فدرسنا الذى نأخذه من هنا أن نعالج مشاكلنا على هذا السنن المؤمن المستنير ؛ فأيما مشكلة تقوم فى محيطنا نعرضها على دين الله ، ونقضى فيها بقضاء الله ورسوله ، سواء صادف ذلك هوى أنفسنا أو كان على رغمها ، ولن يكمل إيماننا إلا إذا سلكنا هذه السبيل ، وصدق رسول الله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما أرسلت به » .. اللهم لا تدخلنا فى تجربة يكون قبضنا على دينك فيها كقبضنا على الجمر ، وإذا أردت لنا تجربة من هذا القبيل فحبب إلينا دينك واهدنا إلى طريقك ، واجعل هوانا ورغبتنا فيما تحب وترضى ...

لقد بلغ مدى علم الله بالمصلحة المترتبة على هذا الصلح أن سماه فتحا مبينا ؛ فقد يظن كثير من الناس أن المراد بالفتح المبين فى قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا » هو فتح مكة والصحيح أن المراد به صلح الحديبية ؛ فقد نزلت هذه السورة فى الطريق بين مكة والمدينة فى عودة الرسول وصحبه إلى المدينة بعد الصلح ، والدارس لما حدث بعد هذا الصلح وما ترتب عليه يجد أنه كان المقدمة الطبيعية التى لابد منها أو مثلها

ليدخل المسلمون مكة دون مقاومة تذكر ، بل - من ناحية قبول الدين الجديد - بإعجاب بالدين ودخول فيه ؛ وعلى قدر ما أعلم عن سقوط العواصم والمدن ، لم أعــلم أن مدينة سقطت فى يد الفاتحين كان شأنها شأن مكة حين فتحت .

تفتح المدن والعواصم فيملك الفاتح الطرق والأبنيه وإرغام الناس ولكنه لا يملك القلوب التى فى الصدور ، أما فتــح مكة فهو الفتح الوحيد فى التاريخ - فيما أعلم - الذى ترتب عليه ملك الأمرين جميعا عن رضا وطواعية ، وفى لحظة انقلب الأعداء الألداء أحبة أحماء ، ومن هنا استمعوا فى وقت الكرب والشدة هذا النداء : اذهبوا فأنتم الطلقاء ..

إليك أيها القارىء الصورة باختصار: كان العرب والأعراب يتحرجون من الاتصال بالمسلمين أتقاءً لغضب قريش أو عتابها فلما تم الصلح رفع هذا الحرج وصاروا يقولون : إن قريشا صالحت محمداً فلماذا نخاصمه وقد كنا نخاصمه من أجلها ؟ ولهذا سُمِّى العام السابع للهجرة عام الوفود: جعلت كل قبيلة توفد إلى رسول الله من يتعلم الإسلام ثم يعود إلى قومه ، أو تطلب إليه

أن يرسل إليها من يعلمها الدين والقرآن من المسلمين الأولين ، وبهذا الصلح اختلط المشركون بالمسلمين ورأوا رسول الله ، وعرفوا من قضايا الإسلام وخلاله وخلال أهله ما جعلهم يحبون الإسلام ويقبلون عليه ، تاركين ما هم فيه من ضلال .

ويقول الإمام النووى عليه الرحمة ناقلا عن العلماء فى هذه النقطة من البحث :

« إن المصلحة المترتبة على هذا الصلح هى ما ظهر من ثمراته الباهرة وفوائده المتظاهرة التى علمها النبى صلى الله عليه وسلم وخفيت عليهم ، فحمله ذلك على موافقتهم ، وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين ولا تظهر عندهم أمور النبى كما هى ، ولا يجتمعون بمن يعلمهم بها مفصلة ، فلما حصل الصلح اختلطوا بالمسلمين وجاءوا إلى المدينة وجاء المسلمون إلى مكة وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونهم ، وسمعوا منهم أحوال النبى ومعجزاته الظاهرة وأعلام نبوته المتظاهرة وحسن سيرته وجميل طريقته ، وعاينوا بأنفسهم كثيراً من ذلك فمالت أنفسهم إلى الإيمان حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام قبل

فتح مكة فأسلموا فيما بين صلح الحديبية وفتح مكة كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما ، وازداد الذين لم يسلموا ميلا إلى الإسلام،فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم لما قد تم لهم من الميل:

ولعلنا بعد هذه الكلمات لا نعجب إذا قرأنا أن الذين قاموا من المدينة لفتح مكة بعد عامين اثنين كانوا بين عشرة آلاف واثنى عشر ألفا فأين من هذا الجم الغفير ألف وأربعمائة كانوا فى الحديبية ؟!! واذا قرأنا فى دائرة المعارف الإسلامية : « أن محمداً فاز فى صلح الحديبية على قريش فوزاً سياسياً باهراً ..

حتى إن الشرط الذى يتعلق برد المسلمين إلى مكة وعدم رد المسلمين المنحرفين إلى المدينة، سعت قريش نفسها إلى رسول الله أن يلغيه

فقد حدث أن رجلا اسمه أبو بصير رضى الله عنه جاء إلى المدينة مسلما فرده رسول الله عن المدينة فلم يقبل العودة إلى مكة وإنما ذهب إلى مكان فى طريق « مكة ـ الشام » التجارى ، وعلم بمكانه من كانوا يسلمون من أهل مكة فجعلوا يتسللون إليه فرادى وجماعات ، حتى إن أبا جندل بن «سهيل بن عمرو » الذى وقع عن قريش وثيقة الصلح خرج من مكة فى سبعين راكبا أسلموا فلحقوا بأبى بصير وانضم إليهم ناس من كثير من القبائل حتى بلغوا

ثلثمائة قطعوا طريق قريش : لايظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ، ولا تمر بهم عير إلا أخذوها ، وهنا كتبت قريش إلى رسول الله تسأله بالأرحام أن يطلبهم إلى مدينته وأن يتحلل من أحد شروط الصلح الذى كان يوم الصلح يعتبر شرطا جائرا .

ومما يدل على عبقرية محمد الذاتيـة ـ مع طاعته لأمر ربه ـ وعلى أنه كان يفاوض فى الصلح على أعلى درجات الدراية السياسية هذه القصة ،

روى موسى بن عقبة والزهرى والبيهقى عن عروة بن الزبير قال: أقبل النبى صلى الله عليه وسلم راجعا من الحديبية ، فقال رجل من أصحابه : ماهذا بفتح . لقد صددنا عن البيت وصد هدينا ، فبلغه صلى الله عليه وسلم قول ذلك الرجل ، فقال: بئس الكلام بل هو أعظم الفتح : قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان ، ولقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح . أنسيتم يوم أحد ، إذ تصعدون ولاتلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم ! ... أنسيتم يوم الأحزاب

« الخندق » إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون ؟ . فقال المسلمون : صدق الله ورسوله .. هو أعظم الفتوح والله يا نبى الله .. ما فكرنا فيما فكرت فيه . ولأنت أعلم بالله وأمره منا . أقول : إن محمدا كان له من المعرفة والدراية السياسية ما جعله يعرف - وهو يعتمد الصلح - المزايا الضخمة التى حصل عليها المسلمون ، ولعله كان يرى بنور الله أن هذا الصلح كان المقدمة التى تنتج بالضرورة فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا.

ومن هنا ينبغى أن نتعلم أن بعض القواد والزعماء الموهوبين يكونون لذكائهم ولإدراكهم لأكثر أبعاد المشاكل التى يتصرفون فيها أقدر من غيرهم من الناس على الوصول بالمشاكل فى يسر إلى الحلول المنشودة ، ولو ظهر غيرهم بمظاهر الشجاعة والغيرة والإقدام ودلائل العزة والكرامة .

ومن المواقف التى تملأ الحياة بالدروس والعبر موقف النبى والمسلمين فى بيعة الرضوان ، وموقف السيدة أم سلمة رضى الله عنها حين تأثر النبى من عدم إقبال المسلمين على تنفيذ أوامره

فى التحال من العمرة بذبح الهدى والحلق أو التقصير .

فأما الموقف الأول فأهم الدروس فيه أن المؤمن يجب أن يتصرف فى كل موقف بما يناسبه ، فالمعروف فى هذه الرحلة أنها للزيارة والعمرة وليست للقتال والفتح ، ولكن حدث ماجعل المسلمين يقفون موقف المقاتل المضحى بكل شىء حتى الحياة ؛ لأن الدين نفسه يلزمهم أن يقفوا هذا الموقف، ولنذكر الموقف من أوله .

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزوله بالحديبية عثمان بن عفان وحده أو هو وعشرة من المسلمين -على الخلاف- أن يذهب إلى مكة ليخبر كبار قريش أن النبى وأصحابه لم يأتوا غازين ولا محاربين وإنما جاءوا زائرين متعمرين قد ساقوا الهدى ؛ فذهب عثمان إلى كبار مكة وأخبرهم بما أمره به رسول الله ، وكان المفروض أن يرجع عثمان بالردفى الوقت المناسب ، ولكن أبطأ عثمان واستبطأه المسلمون حتى شاع أنه قتل ؛ ولما كثرت وسرت هذه الإشاعة أمر رسول الله عمر أن ينادى الناس إلى البيعة ... ولما حضر الناس بايعوه على عدم

الفرار وفى رواية أحدهم : بايعناه على الموت ؛ ولقد ظهر بعدها أن عثمان لم يقتل .

وموضع العبرة أن المسلمين رغم أنهم لم يأتوا لقتال ، إلا أنهم حين يعتدى عليهم أو تمس كرامتهم يقفون رجالا يبايعون على الموت فى سبيل مثلهم العليا وما أحلى هذه الجملة : بايعناك على الموت...ولكن لا عجب فالقوم قد باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة ، ولرفعة قدر هذه البيعة سميت «بيعة الرضوان» أخذا من قوله تعالى فى الحديث عنها فى سورة الفتح: «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة..»

ومما حدث فى هذه البيعة مما يزيد الأدلة على ما بين محمد وربه، - وإن كنا لسنا فى حاجة إلى دليل - أن النبى حين البيعة بايع عن عثمان ، مع أن البيعة كانت كلها تقوم على أن عثمان قد قتل ، ولكن النبى يضع يده اليمنى على يده اليسرى كأنما كل يد لشخص يبايع الآخر ويقول : اللهم هذه عن عثمان فإنه فى حاجتك وحاجة رسولك ... ولا عجب فهو رسول الله...

وأما موقف أم سلمة الرائع، وموقف الرسول معها الأكثر

روعة ، فهو أن رسول الله أمر الناس بعد الصلح بنحر الهدى والحلق استعداداً للعودة إلى المدينة فبكى الناس وتباطئوا ، فدخل على أم سلمة يخبرها خبر المسلمين ويخشى أن يهلكوا بسبب عدم طاعتهم ؛ فقالت أم سلمة : يارسول الله إن المسلمين قد أصابهم ما أصابهم حين اضطرا إلى العودة دون زيارة البيت، فامض يارسول الله إلى إبلك فانحر أمامهم فإنك ستجدهم يتبعونك لا يتخلف منهم رجل واحد حين يرونك تنحر هديك .. فأخذ النبي بما قالت له زوجه العاقلة المجربة وقام إلى سكينه فشحذها ثم أقبل على إبله ينحرها ، فبكى المسلمون وهوى كل منهم إلى إبله فنحرها ثم حلقوا وأحلوا . فأين من هذا المثل أولئك الذين يستبدون برأيهم ولا يقبلون على استشارة أحد مهما كان ، بل أنهم لينفرون أشد النفور من استشارة امرأة أى امرأة ولو كانت زوجة وربة بيت وأم بنين ، وربما أتى لك بعضهم بنصوص تجعل استشارة المرأة فى أمر ما شيئًا لا يجمل بالرجال .

فهناك عناصر فى نوع النساء تتمتع بالحصافة فى الرأى والبعد فى النظر والقدرة على تصريف الأمور ، كما أن هناك فى نوع

الرجال عناصر كثيرة قد يتم للواحد منهم أن يكون فى ذلك كله أقدر من كل عناصر النساء ، وهاكم نبى الله هاديا ومرشدا ، إذ لما وجد ماتقوله زوجه حقا ومن طبائع النفوس أنفذ قولها وأكرمها الله بتحقيق ماقالته للرسول ، فما كاد يفعل حتى أقبل الناس يفعلون ...

اما بعد فإننا إذا رجعنا إلى الرؤيا نفسها وقد كانت أن رسول الله دخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين لايخافون من قريش شيئا ؛ فهل كان يمكن فى مسيرة الحديبية أن تتحقق الرؤيا بنفسها كما رؤيت فى النوم؟!. إن القوم وقفوا فى وجه المسلمين ، وصار الأمر إما أن يدخلوا بالقوة وإما أن يرجعوا بالقوة وإما أن يتفقوا على وضع يتراضون عليه جميعا ؛ فكان أن وفقهم الله للصلح الذى أعقبته مصالح وخيرات جسام - أهمها من جهة تحقيق الرؤيا - الاتفاق على تمكين المسلمين من زيارة البيت ودخول المسجد الحرام على شروط الرؤيا نفسها : آمنين .... لايخافون ، وإن تأخر الوقت عاما عما كان يقدر المسلمون ، ولو قد دخل المسلمون المسجد

الحرام فى أيام الحديبية فلن يكون دخولهم تحقيقا للرؤيا لعدم تحقق شرطى الأمن وعدم الخوف ، ومن هنا كانت آية الرؤيا ـ ضمن آيات سورة الفتح ـ تصور هذه المعانى بألفاظ تستوقف النظر طويلا يخرج منها القارىء بأن الصلح والتوفيق فيه عمل إلهى لتحقق الرؤيا التى هى من الله أيضا ـ بالصدق والحق كما رآها النبى فى منامه : لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام ـ إن شاء الله ـ آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون .. فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ...

كان من نتائج الحديبية أن أرسل رسول الله صلى الله عليه رسله بكتب من عنده تدعو البلاد المجاورة إلى الإسلام حتى إذا استجابوا دعا من بعدهم الخ حتى يحقق المعنى من إرساله للناس كافة بشيراً ونذيراً ، وهنا نتعلم أن من يتعرض فى وطنه لشق عصا طاعته من مواطنيه لن يكون من اليسير أن يخرج بدعوته أيا كانت ـ خارج وطنه ، وتلك طبيعة الأشياء فالذى لا يستطيع

سياسة بيته لا يفلح فى سياسة دولته والذى لا يستطيع سياسة دولته كان فى سياسة غيرها أعجز الناس ، وهذا الحكم أغلبى ، فقد تستحر نيران الحقد بين الأقرباء أو القرناء ، فلا يتمكن الساسة الأذكياء من الانتفاع بثمرة ذكائهم ، ولو أقاموا بين غرباء ربما استطاعوا تحقيق أغراضهم بشكل أتم وأشمل.

وفى أكثر الأوطان العربية ـ مشكلة من هذا النوع ـ تظهر فى قطر فى صورة الطائفية الدينيه ، وفى آخر فى صورة العنصرية القومية الخ ـ وذلك لأسباب كثيرة أقربها إلى عهودنا الاستعمار فإنه كان ـ لا كان ـ يقوم بالدس والوقيعة والتفرقة بين العرب المستعمرة بلادهم على طرق تختلف بما يناسب كل منطقة فهو فى السودان غيره فى المغرب والجزائر غيره فى سوريا ولبنان غيره فى العراق غيره فى سواحل المحيط الهندى والخليج العربى ، ثم هو فى الوطن كله يخط الحدود ويظل بكل الوسائل يعلن عن حيدته التامة حتى يصل الأمر إلى أن يحتكم العربيان إليه فيما يختلفان فيه من حدود تأكيداً لمعانى الانفصال والتفرقة وإثارة لرغبات الملك والسلطان والتحكم فى بعض الناس ، حتى إذا آذنت

شمسه بالمغيب ، وظهر فى الأفق - وبأدلة عملية كما حدث فى حرب فلسطين مثلا - أن العرب فى سبيلهم إلى الوحدة أو ما يشبهها ، انحاز إلى اليهود ولم يصلوا بعد إلى مليونين وخاصم العرب وهم عشرات الملايين وفى أيديهم الخيرات والممرات والأرض والجو والبترول.

أيها العرب ... إن محمداً لم ير من طبائع الأشياء أن يرسل إلى أحد من الأمم المجاورة رسولا أو كتاباً وهـــو لايزال فى معارك مع قومه فلما اصطلح معهم - على أى شكل - بدأ يخاطب ملوك الأمم ورؤساءها برسله وكتبه ، ونحن لن نستطيع مخاطبة العالم بما نريد فى ثقـة وأمل إلا إذا انتهت خلافاتنا الحـادة من حياتنا ، وأصبحنا يأمن بعضنا بعضـــا ويتحدث أحدنا بلسان الآخرين ، وحتى فى داخل الوطن العربى الواحد لن نستطيع أن نتحدث مع الوطن العربى الآخر أو غير العربى من موقع الثقة حتى نكون فى وطننا الصغير أهلا لهذه الثقة.

ونحن فى حاجة لكل قطرة عرق أو دم ولكل لحظة تفكير من كل فرد عربى لتوجه إلى هدف واحد هو : إزالة آثار العدوان إن لم يكن إزالة أساس العدوان .

وكتب رسول الله إلى ملوك وعظماء البلاد المجاورة ومروية ومسجلة ويظهر فى بعضها خاتم رسول الله وإذا قرأناها وجدناها دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ووجدنا فى كل منها مايتناسب مع مبادىء وطبيعة الشخص المرسلة إليه .

ومن هنا نأخذ أن رسالة محمد لم تكن أن يقيم دولة الإسلام فى المدينة ، وأن ينتهى أمرها إلى إخضاع من يجاورها ومصالحة مكة عشر سنين تقبل أن تزيد ، وإنما رسالة محمد هى دعوة الله إلى الخلق كلهم أن يعبدوه ويوحدوه ويقدروه قدره الذى يعرفه لنفسه ، فما هو إلا أن يأمن محمد أقسى وأشرس قوة تقف فى وجهه وهي قريش فى مكة حتى ينقل نشاطه فى الدعوة إلى الله إلى كل من يستطيع الوصول إليه بادئاً بمن يملكون الأرض التى تحيط ببلاد العرب التى أصبحت تدين بالإسلام أو تهادنه . مما يعطينا أن رسالتنا دائما هى عرض ما يصل إلينا من خير على المحرومين منه ونكون أسعد الناس إذا أقبلوا عليه وانتفعوا به وآمنوا بجدواه وتقبلوه .

ونحن هنا فى مصر مزرعة العلوم الدينية والعربية المنظمة

العريقة والعلوم الكونية والتجريبية المختلفة الطارفة نبعث بأبنائنا وخيرة شبابنا إلى من يطلب من البلاد الإسلامية كلها ومن البلاد العربية الشقيقة وفاء لهذه الرسالة، وقد نكون في بعض الظروف محتاجين إلى خبراتهم وعلمهم .

أرسل رسول الله إلى هرقل حاكم الشام وعظيم الروم :

« السلام على من اتبع الهدى .. أما بعد : أسلم تسلم .. وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك » هذا نموذج من كتب رسول الله ونلاحظ أن هرقل مسيحى ، ولذلك قال له أسلم يؤتك الله أجرك مرتين لما هو معروف فقها أن الكتابى إذا أسلم فإن له أجر إيمانه وتصديقه بالنبى السابق وأجر إيمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك فإن الرئيس إذا أسلم فأسلم بإسلامه قومه كان له أجر إسلامه وأجر يعادل أجر كل من أسلم بإسلامه دون أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ويقابل هذا قوله : وإن تتول فإن إثم « الأكارين » يعنى رعاياك من الزراع والفلاحين يقع عليك ، كأنه يقول: قد يوجد فى رعاياك من يودون الإسلام ولكنهم يخشونك ، فإذا لم تؤمن كان إثم من

شأنهم الانقياد إلى الرئيس الحاكم على نفس هذا الرئيس ؛

ومن هنا فإن على كل ذى ولاية أن يكون ـ ولو فى ظاهر أمره وأمام رعيته ـ فى موضع القدوة ، وفى محل القيادة الأخلاقية فقديما قيل : الناس على دين ملوكهم ... ولا تخرج بقية الكتب عن هذه المعانى : دعوة خالصة لله وتأكيدها بذكر كلمة أو جملة تمس قلب المرسل إليه ليساعد قلبه عقله ـ إذا قدرت له الهداية ـ على سلوك المسلك المطلوب .

ففى كتابه إلى كسرى بعد المقدمة : أسلم تسلم .. فإن أبيت فعليك إثم المجوس ، .. وفى كتابه إلى المتوقس عظيم قبط مصر . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم كل القبط .

وفى كتابه للنجاشى « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصم ملك الحبشة . . سلم أنت . . فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته

وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً ونفراً معه من المسلمين ، فإذا جاءوك فاقرهم ودع التجبر ، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله ، فقدبلغت ونصحت فاقبلوا نصحى والسلام على من اتبع الهدى ، فلماوصل هذا الكتاب إلى النجاشى أصحمة الأصحم ـ وضعه على عينيه ونزل عن سريره فجلس على الأرض ثم أسلم وكتب الجواب الآتى للنبى صلى الله عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم ـ إلى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم ، بن أبجر ، سلام عليك يا نبى الله ورحمة الله وبركات الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام أما بعد : فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيدعلىما ذكرت .. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قرينا ابن عمك وأصحابه ،فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا وقدبايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وأرسلت إليك بابنى أرها بن الأصحم بن أبجر ، فإنى لا أملك إلا نفسى ، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول

الله » ... قال ابن إسحاق : وذكر لى أن النجاشى بعث ابنه فى ستين من الحبشة فى سفينة ، فإذا كانوا فى وسط البحر غرقت بهم سفينتهم فهلكوا ...

أقول : لعل هذا هو السبب فى عدم ذيوع ولا تسجيل أن ابن النجاشى وصل إلى المدينة فى أى أصل من أصـــول كتب السيرة ؛ ورغم هذه النصوص الواردة فى أصدق الـكتب فإن بعض البغـاة على مجد الإسلام وأثره ينكرون إسلام النجاشى ، وأنا أقول بإسلامه إستناداً إلى ما هو موجود فى تاريخ الطبرى وسيرة ابن هشام وأسد الغابة ؛ وفى حياة محمد تأليف ايرفنج أن النجاشى كان مسيحيا نسطوراً ،ومذهب نسطور قائم على التوحيد وينكر ألوهية المسيح ومن أقواله : « لا تقولوا مريم أم الله لأنها من البشر ويستحيل أن يولد الإله من البشر».

ونسطور هذا كان بطريرك القسطنطينية من عـام ٤٢٨ الى عام ٤٣١ كما فى دائرة المعارف الإنجليزية وكان رجلا متبحراً فى الديانة المسيحية ، وكان له أتباع كثيرون ، ولـكن عقيـدته لم تعجب القساوسة فاضطهد وعزل عن البطريركية ونفى ...

ولقد جاء فى مسند الشافعى من « كتاب الجنائز والحدود » عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ، نعى للناس النجاشى فى اليوم الذى مات فيه ، وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر أربع تكبيرات ، وهذا أعظم الأدلة على أنه كان مسلما لأن النبى لا يصلى عليه ولا على غيره اذا كان غـــير مسلم ...

(غزوة خيبر)

كانت سورة الفتح كما قدمنا قد نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريق عودته من مكة -بعد الحديبية - إلى المدينة... وكان منها قوله تعالى : - وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » فُسِّرَ الوعد بفتح خيبر .

وكان السبب المباشر لغزوها أنها أصبحت مركزاً لدسائس اليهود وكيدهم ضد الإسلام ورسول الله، وبخاصة أنها تقع قريبا من ديار غطفان وفى حلف معهم ، وأنها تقع بين المدينة وتخوم بلاد الروم (كان الشام واقعا تحت حكم الرومان ، وكان العرب يطلقون على تلك الديار بلاد الروم وعلى البحر الأبيض بحر الروم ، لكونه واقعا بين ممتلكاتهم) فبينها وبين المدينة إلى الشمال منها ٩٦ ميلا عربيا وكانت عبارة عن مجموعة حصون لكل مجموعة من اليهود حصن خاص بهم ، فاليهود كما قدمنا لا يعيشون إلا فى السلاح والحصون ، وتكشف الغنائم التى غنمها المسلمون من

السلاح وأنواعه المختلفة عن مدى الاستعداد الحربي الهائل الذى يعيش فى ظله اليهود فى كل مكان ، ففى حصون قريظة والنضير وجد المسلمون السلاح وفى حصون خيبر وجدوا المنجنيق والدروع والسيوف ، ولعل لهذا صلة وثيقة بما عليه حال اليهود من التقطع فى الأرض وشعورهم بأنهم قلة فى كل وطن وغرباء فيه ، وهذا الشعور نفسه يقتضى من صاحبه سوء الظن بالآخرين وتوقع الإغارة والاستعداد لكل نازلة .

من هذه الصورة نتبين مدى الخطر الذى كان يتعرض له المسلمون لو اتفق الرومان فى الشمال وغطفان فى الشرق من خيبر مع أهلها على غزو المسلمين ، وذلك كان محتملا فى كل وقت لأن رغبة اليهود فى القضاء على الإسلام ورسوله لم تفتر يوما ما ؛ منذ دخل يثرب وجمع الله به بين الأوس والخزرج الحيين اللذين كان اليهود يعيشون على الخلافات بينهما يذكونها حتى تستعر حربا تخلف أضغانا جديدة وأحقاداً .. من التصور العام لهذه الصورة نعرف أنه كان لابد للمسلمين أن يصفوا موقف خيبر بعد أن صارت مركز التجمع لأعدى أعداء الإسلام ...

سار المسلمون إلى خيبر بعد الفراغ من أمر الحديبية بحوالى شهرين أواخر المحرم وأوائل صفر فى صدر السنة السابعة ، ومما يلاحظ أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى هذه الغزوة يعمل أشياء لم يكن يعملها فى الغزوات السابقة فمثلا، لما أشرف على على خيبر قال لأصحابه : قفوا ، ثم قال : «اللهم رب السموات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وماذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها .. أقدموا باسم الله ».

ثم إنه فيما رواه البخارى عن أنس أتى خيبر ليلا ، فقام هو وأصحابه دونها، ثم ركبوا إليها بكرة فصبحوها بالقتال... وكان إشرافهم على حصونها ومبانيها حين خروج اليهود إلى زروعهم، ثم اشتغل المسلمون بفتح الحصون حصنا بعد حصن حتى انتهوا من فتحها إلا حصنين ظنّ من فيهما أن لهم قدرة على فك الحصار ثم لما أيقنوا بالهلاك عرضوا على رسول الله الصلح على حقن دمائهم والخروج من أرضها لايحمل الواحد منهم إلا ثوبا واحداً

وألا يحمل أى واحد فيهم شيئا غير ذلك ، وكانوا أوفياء فى عهدهم هذا .

ولما وقع فى أيدى المسلمين صحائف من التوراة وجاءوا يطالبونها سلمت إليهم محفوظة مكرمة .

ومن هنا نستطيع أن نعقد المقارنات بين ا فعله الرومان حين دخلوا أورشليم عام ٧٠ ق.م حيث أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، وما فعله متعصبو النصارى فى حربهم مع اليهود فى الأندلس حيث أحرقوا صحف التوراة أيضا ، ولذا يقول كبار الكاتبين من اليهود المنصفين : «هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام».

وبعد تمام فتح خيبر و وإعطائها لمن فيها يزرعونها بشطر ما يخرج منها على أن للمسلمين حق إخراجهم منها فى أى وقت حدثت أربعة أحداث فى كل منها درس وعبرة :

١ - كانت لحيي بن أخطب بنت تسمى «صفية» وكان الجلاء قد كتب عليها كبني النضير جميعا ، تزوجها كنانة بن الربيع بن أبى

الحقيق ، وفى خيبر وقعت فى سهم دحية الكلبي الصحابى الجليل فنفس عليه غيره أن تكون له بنت زعيم اليهود حيي بن أخطب وكادت تحدث فتنة ، فأخبر النبي بذلك فعرض على دحية جارية غيرها ثم أخذها لنفسه فأعتقها وعرض عليهـــا الزواج فقبلت فتزوجها. ثم لما صارت إحدى زوجاته كانت تعيّر بأنها يهودية، روى الزمخشرى عن عكرمة عن ابن عباس أنها جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم تشكو له وتقول : إن النساء يعيرننى ويقلن: «يا يهودية بنت يهوديين» فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: هلا قلت إن أبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد».

ومن هنا نأخذ أن ميراث موسى وهارون وهو الدين اليهودى شيء محترم فى الإسلام ننظر اليه نظرة المصدق به لأننا نصدق بجميع الأديان السماوية السابقة وبجميع الأنبيـــاء والمرسلين: «لا نفرق بين أحد من رسله» فقصة الرسل عندنا سلسلة ذات حلقات : كل رسول يأتى يكمل فى التشريع ما نقص فى دين من سبقه؛ أما العقيدة ومعنى الإيمان فذلك لا خلاف فيه بين الأنبياء... على أننا حين نؤمن بالأديان السابقة نؤمن أيضـــا بأن الدين

اللاحق ينسخ أحكام الدين السابق وإن كان يثبت عقائده ، وبما هو معروف فى التشريع الإسلامى: «شرع من قبلنا شرع لنا مالم يرد فى شرعنا ماينهى عنه» ويكون معنى الإيمان به هنا الاعتراف بأن الله أرسل النبى فى وقته وكان من شريعته كذا وكذا بحيث لا يكذب المسلم هذا الخبر وإنما يصدقه ،مع إضافة أن النبى الذى جاء بعده ممن أخبرنا بهم القرآن وحدثنا عنهم رسول الله جاء بكتاب كذا ومن شريعته كذا وكذا ، وليس معنى الإيمان والتصديق به أننا نسير على شريعته؛ لقول الله تعالى : لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولقوله فى وصف القرآن بالنسبة لجنس الكتاب السابق كله : «ومهيمنا عليه» .

فاحترامنا لليهودية فى الصدر الأول وإلى الآن شىء،والعمل بشريعتها شىء آخر ، كما أننا نسير على أن اليهودية كدين شىء ، والصهيونية كمذهب عدوانى توسعى عنصرى يميز طوائف من البشر على طوائف لمجرد النسبة إلى أحد من الناس مهما كان شىء آخر يختلف تمام الاختلاف .

والقرآن الكريم يتناول بنى إسرائيل فى الناحيتين جميعا ،

فى ناحية جعلهم سلالة الأنبياء والملوك وتفضله عليهم بكثير من ألوان الرعاية والفضل الذى يصل إلى حد الفضل على من كانوا يعاصرونهم من العالمين ، لأنهم كانوا وحدهم يعبدون الله، ومن يعاصرونهم كانوا بين عباد للنار أو للحيوانات أو للكواكب أو للانسان أو الأصنام ، وفى ناحية انحرافهم العنصرى بقولهم : « نحن أبناء الله وأحباؤه » فيرد عليهم بقوله: « بل أنتم بشر ممن خلق » ، وانحرافهم الدينى فى عبادتهم العجل الذى صنعه السامرى وكان له خوار مسموع، وبقتلهم الأنبياء وبتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم من المطعومات ، وبكل ما يمكن أن يرد على البال من افتراء وتحريف لكلم الله.

وعلى هذا الأساس ينظر الإسلام إلى الأشياء كلها ، ينظر إلى المبدإ الصحيح والقضية الحقة فيحترمها، وينظر إلى الأشخاص من خلال مدى تمسكهم بالمبادىء التى ينادون بها أو انحرافهم عنها ، ومناط التكريم والتفضيل عنده ، ليس الأصل والعنصر، وإنما السبق إلى الخير والعمل به : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ولقد كان عمر يدخل بلالا وصهيبا وابن مسعود وعماراً وغيرهم من الموالى والفقراء فى مجلسه ويأذن لهم قبل أن يأذن لأبى سفيان ، وليس مناط التفضيل الدعوى وإنما مناط التكريم التقوى «لافضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى »

وبمقياس الإسلام هذا ننظر إلى الأديان السابقة والأنبياء السابقين ممن ذكرهم الله فى كتابه الكريم أو تحدث عنهم الرسول الكريم ،وهم عندنا على طريق واحدة يدعون دعوة واحدة هى دعوة الحق، وكلما طال الأمدعلى الناس أرسل اللهرسولا يذكرهم بأيام اللهويخبرهم بخبر الغيبمن الجنة والنار والثواب والعقاب، حتى ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه جاء بكتاب تكفل الله بحفظه وبقائه ، ذكر فيه كل مايهدى البشرية إلى الطريق المستقيم من قصص الأولين ، وأحوال المعاصرين لنزوله ، وما يكون من أحوال الناس إلى أن يقوموا لرب العالمين .

فبالإسلام كمل الدين وتم ، وحين نقل الرسول إلى الرفيق الأعلى ترك فى الناس ماإن تمسكوا به ولم يفرطوا فيه لم يضلوا

بل يظلوا مهديين إلى أن تقوم الساعة ، وهو كتاب الله وطريق رسوله فى الحياة : «مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى داراً إلا موضع لبنة ؛ فجعل الناس يطوفون حولها وينظرون إليها ويقولون : ماأجمل هذه الدار لولا موضع اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» صدق رسول الله .

٢ـ الحدث الثانى : روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : لما فتحت خيبر واطمأن صلى الله عليه وسلم بعد فتحها ، أهديت للنبى صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم ، فلاك منها مضغة ثم لفظها حين أخبره العظم أنها مسمومة ، وازدرد بشر ابن البراء لقمة ، فقال صلى الله عليه وسلم : ارفعوا أيديكم ،... وأرسل إلى اليهودية ، فقال : هل سممت هذه الشاة ؟ فقالت من أخبرك ؟. قال أخبرتنى هذه التى فى يدى مشيراً للذراع !!.. قالت : نعم ، قال لها ماحملك على ذلك ؟ قالت : إن كنت نبيا يطلعك الله ، وإن كنت كاذبا فأريح الناس منك ، وقد استبان لى أنك صادق ؛ وأنا أشهدك ومن حضرك أنى على دينك وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فعفا عنها صلى الله عليه

وسلم ولم يعاقبها اهـ ...

ويستفاد من هذا الحديث أن تأصل المعجزات الحسية فى نفوس أهل الأديان السابقة شيء يملك عليهم عقولهم ؛ فهذه اليهودية ـ بعد ماعلمت من كتب اليهود أنفسهم صفة رسول الله وزمان بعثته ، وبعد ماعرفت أنه تحدى بالقرآن معجزة المعجزات فصحاء العرب وبلغاءهم فعجزوا عن أن يأتوا بشيء من مثله إن كان له مثل ، وتابعوه مبهورين محبين أشد الحب حتى بذلوا أرواحهم رخيصة فى سبيل ازدهار دعوته والتمكين لدينه ـ ماتزال تلح عليها جبلتها أن تكون لهذا النبى معجزة حسية تراها بعينيها ، فقدمت للنبى شاة مسمومة .

والإسلام وإن كان لا يعتبر المعجزات الحسية أساس بنيانه وقاعدة سلطانه إلا أن الله يؤيد رسله بما شاء لما يشاء ... لقد قام الإسلام على مخاطبة العقل وحث التفكير على النظر ، وجعل من الكلمة المشرقة والبرهان الواضح والآية البينة وسيلته لإقناع الناس بصدق رسوله فيما يبلغ عن ربه ، ولو أن محمداً ـ وهو نبى آخر الزمان وخاتم النبيين ـ قامت دعوته على الإعجاز الحسى ،

لأمكن للعلماء التجريبيين بعد تقدم العلوم الكونية والكهربية والذرية أن يدعى النبوة معتمداً على أنه يفعل مالا يستطيع غيره أن يفعل .. على أن هناك فرقاً واضحا بين المعجزة الإلهية والمعجزة العلمية العلمتة فى جميع الأحوال . . . فتلك لاتوهب بالممارسة والتجربة ولا تستفاد وتكتسب بالتعليم ، وإنما توهب لمن يجتبيه ربه ويصطفيه للرسالة: «الله أعلم حيث يجعل رسالته».. « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس» فوق أن غير الذى أجريت على يده المعجزة لايستطيع أن يفعلها مهما أوتى من بسطة فى الجسم أو سعة فى العلم أو كثرة فى المال .

أما المعجزة العلمية فلا يملكها بالضرورة أطيب العناصر ، لأنها نتيجة قواعد علمية يستطيع أى شرير أو خير أن يتعلمها ويقوم بعملها ، وإنك لترى الصورة على شاشة التلفزيون ، ولا شك أن هذا إعجاز علمى ، ولكن لو صبرت على تعلم هذا اللون من الإعجاز ربما كنت أكثر براعة وفنا ودقة ممن صمم الآلة التى بين يديك ، ومادام هناك مفتاح للسر فلا يعتبر هذا السر إعجازا ، وتسميته إعجازا علميا على التشبيه لا على الحقيقة ،

ومايزال الناس حتى فى عصرنا الحاضر ينبهرون للمعجزة الحسية إذا استمعوا إليها رغم تقدم الحضارة والعلوم والفنون ، حتى إذا استطاع الفن والعلم أن يصل بسبب بين شخصية دينية ومعجزة علمية ، نسى الناس فى غمرة الإنبهار والعجب أن عصر المعجزات كلها قد مضى وانتهى، وانطلقوا يخلطون بين الإعجازين وينسبون الإعجاز إلى الأحياء والأموات على السواء.

والإسلام فى الاقتناع والاعتقاد دين دقيق أشد الدقة وأبلغها يطالب إلى تابعيه ألا يصدقوا شيئا أو يكذبوه إلا عن يقين عقلى واطمئنان نفسى بعد بحث الشيء من جميع زواياه وجوانبه ، وينهاهم أن ينساقوا وراء الشائعات مهما كان مصدرها ، ويحذرهم أن يعتقدوا شيئا لا يفهمونه فليس فى الإسلام : « اعتقد وأنت أعمى » ولكن فيه لا تعتقد إلا عن بصر وبصيرة وبحث واستقصاء متخذا كل وسيلة للوصول إلى الحق .

وفى هذا الزمان تقدم التصوير التلفزيونى الذى يعتمد على الأشعة بطريقة خاصة علمية تصنع الصورة فيراها البصر ، ولا يمكن أن تكون الصورة المرئية هى الحقيقة وإلا تعددت الحقائق للشيء الواحد .

وللجن قدرة على التشكل للفتنة فى أغلب الأحيان : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم » .

فالمسلم الحق عليه قبل أن يقتنع ويعتقد ـ أن يبحث ويجتهد حتى لا تبقى ثغرة واحدة لنقض اعتقاده فى المستقبل لأن العقيدة تملأ العقل والقلب جميعا فيجب تمحيصها تماما قبل أن تدخل عالم الاعتقاد .

أما أهل الأديان السابقة فلعل طبيعة أديانهم تجعل اقتناعهم بالمرئيات لمجرد رؤيتها من طبائع الأشياء؛ بحيث لا يحفلون بخداع النظر ولا يسألون عما وراء الصورة: أهى من الله أم من الشيطان أم من نتائج علم الإنسان ؟ . .

٣ ـ **الحدث الثالث:** لعلك تذكر أيها القارىء ذلك الكتاب الذى أرسله النبى صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى . . وفى نصه :

(وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا ونفرا معه من المسلمين)

ولما كان جعفر أحد مهاجرة الحبشة فقد وقع الخطأ عند كثيرين من كتاب السير حين يروون حادث عودة جعفر إلى المدينة

ولما لم يجد رسول الله فيها توجه إلى حيث يوجد رسول الله ... إلى خيبر، فإنهم يعتبرونها عودة من الهجرة ، مما يجعل القارىء يفهم أن جعفراً ظل فى الحبشة منذ هجرته إليها ولم يعد إلا فى فتح خيبر ، ويظهر لى استنادا إلى النص الوارد فى كتاب النبى إلى النجاشى أن جعفراً حمل الخطاب من المدينة إلى الحبشة بعد صلح الحديبية ولعله اختير لسابق معرفته بها ،ولعله أيضا حامل رسالة الرغبة فى تزوج النبى بأم حبيبة بنت أبى سفيان رضى الله عنها ، ولعلها عادت معه إلى المدينة حين عاد ، إذ إن أم حبيبة تروى بعد أن ذكرت وكالة النجاشى عن النبى فى العقد ووكالة خالد بن سعيد بن العاص عنها ، وتقدم النجاشى بأربعمائة دينار صداقا لها . فتقول : « فخرجنا من الحبشة فى سفينتين ، وبعث معنا النواتى حتى قدمنا الجار ثم ركبنا الظهر إلى المدينة فوجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ، فخرج من خرج إليه ، وأقمت بالمدينة حتى قدم رسول الله فدخلت إليه ، فكان يسألنى عن النجاشى الخ » .

ولم يل النجاشى العقد لرسول الله إلا بعد مقدم جعفر بكتاب

الدعوة إلى الإسلام وبعد إسلام النجاشي حتى يصح العقد ولو لم يكن مسلما لما صح .

هذا ولما وصل بجعفر إلى خيبر لقيه النبي بالبشر وقبل جبهته وعانقه وقام له ، ثم قال : « ما أدرى بأيهما أفرح : بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » وقال له : « أشبهت خَلْقى وخُلُقى » وهنا اهتز جعفر لشدة السرور وفرط ما أصابه من الفرح ؛ ولم ينكر النبي عليه الاهتزاز .

ومن هنا أخذ الصوفية جواز الرقص فى حلقات الذكر عندما يجدون من لذة المواجيد فى هذه المقامات ، ونحن لا ننكر على المسلم أن تتأثر أعضاؤه بما ينفعل به قلبه فذلك أمر طبيعى يراه كل إنسان فى نفسه ، ولكن المشكلة أن الذين يرقصون فى الحلقات ليسوا كلهم على هذا المستوى من التأثر بالمواجيد فى مجالس الذكر والاستماع ، مما يجعل المسألة حركة إيقاعية على نغمات الإنشاد وصوت التصفيق لا تكاد تتصل بتعلق القلب بالذات المقصود .

على أن ما كان يعاب على الصوفية فى حلقات يفرض فيها

أنها تعقد لذكر الله ، أصبح الآن مادة للدراسة ووسيلة للعيش حين يعرض فى حابات يكون فيها نزغ الشيطان أقوى من روح الإنسان ؛ ولكنه الاستعمار الفكرى البغيض .

الحدث الرابع والأخير : ـ حين انصراف المسلمين من خيبر ولما كان آخر الليل قال رسول الله :

« من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا تنام ؟ قال بلال : أنا يارسول الله أحفظه عليك، فنزل رسول الله ونزل الناس فناموا، وقام بلال يصلى ، فصلى ماشاء الله ثم استند إلى بعيره واستقبل مطلع الفجر يرمقه فغلبته عينه فنام ولم يوقظهم إلى مس الشمس وكان رسول الله أول أصحابه يقظة .. فقال ؛ ماذا صنعت بنا يابلال ؟ .. قال : يارسول الله : أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك، قال : صدقت .. فلما أصلحوا من شأنهم إستعدادا للصلاة أمر النبى بلالا فأقام الصلاة ... فصلى رسول الله بالناس فلما سلم أقبل على الناس فقال : إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها فإن الله تبارك وتعالى يقول : « أقم الصلاة لذكرى » ..

ومن هنا نأخذ حرص رسول الله على الصلاة فى موعدها

حتى يفرغ شخصا لرصد الفجر ليوقظ الناس للصلاة ، كما نأخذ حلم رسول الله وعلمه ، فإنه لم يغضب على بلال ، بل جعل هذا الحادث مجالا لتعليم أمته أمور دينهم ، كما نأخذ أن المسلم يجب أن يتمسك بالصدق ويقوله حتى فى أحرج المواقف فقد كان يمكن لبلال أن يعتذر أو يتعلل ولكنه قال محض الحقيقة فإن للنوم غلبة لا تقاوم .

على أن النص الوارد هنا يفيد أن النبي أمر بلالا بإقامة الصلاة لا بالأذان ثم الإقامة، مع أن ماحدث يوم الخندق يفيد أن الأذان للفائتة مطلوب فقد اضطر المسلمون فى أيام الخندق ألا يصلوا العصر فى بعض الأيام ؛ والظهر والعصر والمغرب فى بعض الأيام، وقد أمر النبي من يؤذن للصلاة الأولى ثم يقيم للصلوات التالية ، وفى رواية جابر رضى الله عنه أنه أذن وأقام لكل صلاة وجمع الإمام النووى بينهما ، بأنهما قضيتان جرتا فى أيام الخندق فإنها كانت خمسة عشر يوما ، ويؤخذ من ذلك كله أن هذا الدين يسر لا عسر فيه .

أما بعد : فقد كان فى النية حين أمسكت بالقلم أكتب هذا

الكتاب أن أنتهى من ذكر مايؤخذ من غزوات الرسول كلها من عبر ودروس، ولكن المناسبة التى اقترح على أن أكتب الكتاب من أجلها كادت أيامها تحل علينا ، فآثرت أن أقف بقلمى عند هذا الحد راجيا من الله تباركت أسماؤه وتعالت آلاؤه أن يمكننى فى فرصة قريبة من إتمام ما بدأت حتى أنال منه سبحانه الرضوان والتوفيق ، ومن رسول الله الشفاعة فى ساعة الضيق.

« ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » ، فإن الخطأ شأنى والمغفرة شأنك ، فاكتب لى منها ولقراء هذا الكتاب ما يجعلنا نلقاك نمسك كتبنا باليمين ، ولا حول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين .

محمد محمد ابو خوات

المراجـــع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ عدد من التفاسير

٣ ـ سيرة ابن هشام

٤ ـ السيرة الحلبية

٥ ـ دائرة المعارف الإسلامية

٦ ـ حياة محمد لإيرفنج

٧ ـ « « لهيكل

٨ ـ الإقناع

٩ ـ صحيح الإمامين البخاري ومسلم

١٠ ـ تاريخ الطبري

١١ ـ سنن الترمذي

١٢ــ تاريخ اليهود لولفنسون

١٣ــ مسند الشافعى

١٤ــ دائرةالمعارف الإنجليزية

مطبعة المصري

٩ شارع ابن زنكي - محطة الرمل

تلفون ٢٧٤٠٦ إسكندرية

لم يكن الايمان بالاسلام وانتشار دعوته ، نتيجة قتال ، أو معارك ، أو غزوات ، إنما آمن به من آمن عن اقتناع ملك على المؤمنين أنفسهم وعقولهم وقلوبهم جميعاً . وفى هذا الكتاب ، يحدثنا المؤلف عن موقف قريش من الرسول ودعوته ، وتنكيلها بالمؤمنين ، وكيف حملهم بطش قريش على الهجرة من مكة إلى الحبشة مرتين وأخيراً إلى (يثرب) ، حيث استقروا فيها وقامت دولة الاسلام فى مدينة الرسول . ويبين كيف تم ذلك كله دون أن يرفع المسلمون سلاحاً ولا عصا فى وجوه مخالفيهم فى الدين ، وكيف أن الغزوات والحروب التى اضطر إليها النبى والمسلمون ، لم تكن لحمل الناس على الايمان وإكراههم عليه ، بل كانت دفاعاً عن بلد الاسلام وأرض المسلمين ، وعن الحق فى وجه الباطل ، وعن العدل فى وجه الظلم والظالمين .

والكتاب يحدثنا بعد ذلك عن غزوة « بدر » التى كان النصر فيها من عند الله بعد أن تسلح المؤمنون بالشجاعة و الاقدام وحب الاستشهاد ، ثم يتحدث عن أسباب الهزيمة فى « أحد » التى كان من أهمها مخالفة الجند للقائد ، وحب الدنيا ، والانكباب على جمع الغنائم ، وتصديق الشائعات ، ثم يعرض لغزوة « الأحزاب » ودور اليهود ، وعدائهم المتأصل للعرب والمسلمين .

وبعد أن يتكلم الكتاب عن غزوة « الخندق » ، مستخلصاً بعض العبر التى يمكن أن ينتفع بها المسلمون فى شتى معاركهم يعرض لغزوة أو « صلح الحديبية » و « فتح خيبر » وما كان من أثر فى تاريخ الدعوة ودخول الناس فى دين الله أفواجاً .